بسم الله الرحمن الرحيم

الحد الفاصل بين الإيمان والكفر

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله حمداً يرضيه، من عبد عاجز عن شكره إذ ما من خير إلا بتوفيق منه وإعانة، وبالتوفيق لحمده تتجدد نعمة جديدة تحتاج إلى شكران.

والصلاة والسلام على إمام الهدى والرحمة، سيد الأولين والآخرين الذي لا يكمل إيمان إنسان إلا بأن يكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين. وبعد،

فلقد اختلط عند كثـير من المسـلمين أمر الإيمـان بـالكفر فأصـبح بعضـهم يطلق لفظ (الكافر) على من لا يجوز أن يطلق عليه.. وهذا أمر خطير جداً لأن رسول الله صـلى الله عليه وسلم يقول: [من قال لأخيه المسلم يا كـافر فقد بـاء بها أحـدهما] والمعـنى أنه إن كان كافراً حقاً فهي شهادة من مسلم بالكفر على من هو كافر حقـاً، وإن كـان المسـبوب غـير ذلك أي لم يكن كـافراً فقد رجع الحكم على قائلـه. وفي هـذا يقـول الرسـول صـلى الله عليه وسـلم: [ليس من رجل ادعى لغـير أبيه وهو يعلمه إلا كفـر، ومن ادعى ما ليس له فليس منـا، وليتبـوأ مقعـده من النـار، ومن دعا رجلاً بـالكفر أو قال: عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه] رواه مسلم.

وقد رأيت أيضـاً من يشـهد بالإيمـان لأنـاس ممن ينسـبون إلى الإسـلام وهم يقولـون بألسنتهم، ويعملون ما يشهد عليهم بالكفر ومخالفة جماعة المسلمين. وهذا أيضـاً أمر خطير عظيم الشأن لأنه يدخل في أمة الإسلام من ليس منهم، ولأن كثيراً من الفضلاء وطلبة العلم الشرعي الإسـلامي يقعـون عن جهل في أمـور قد حكم الله في كتابه أن فاعلها كافر، وأنها لا تتأتى من مسلم أبداً، وقد رأيت كثـيراً من هـؤلاء يقعـون في مثل هذه الأعمال، فـإذا بينت له بالـدليل أن ما فعله يعد كفـراً، وأنه يحب أن يتـوب منه لله تبارك وتعالى تعجب.. وكثير منهم رجع بحمد الله.

ولذلك فإني قد رأيت من واجبي توضيح هذا الأمر الخطـير في رسـالة ميسـرة سـهلة. ألتزم فيها -بحول الله وقوته- الأسلوب العلمي اللائق بعلاج مثل هذه الأمور الخطـيرة، وأسـأله تعـالى أن يجنبـني الهـوى، ويعصـمني الزلل إنه هو السـميع العليم. ولن أعتمد الأساليب العقيمة، والاصطلاحات الكلامية والمجادلات الفلسفية.

فهذه الرسالة لعامة المسلمين الذين يجهلون هذه الأمور الخطيرة والله أسأل التوفيق والسداد.

عبدالرحمن عبدالخالق

الكويت في 3 جمادى الآخرة سنة 1393هـ

الموافق 3 يوليو 1973م

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي بنوره تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبيـه، الـداعي إلى الهـدى، وأشهد أن لا إله إلا الله سبحانه وأصلي وأسلم على عبده ورسوله محمد، وبعد:

فإن هذا الكتاب -أخي القـارئ- الـذي بين يـديك كنت قد كتبت فصـوله على عجل يـوم اشتدت فتنة التكفير وشاعت القالة بأن كل المجتمعات الآن مجتمعات كـافرة، وشـرع من قـالوا هـذا القـول يجمع كل فـرد منهم حوله مجموعة قليلة العـدد توافقه على معتقـده، وظنت كل مجموعة منهم أنهم وحـدهم جماعة المسـلمين، وأن غـيرهم إما كفار أو مجهولي الهوية والدين، وإن رأوهم يصـلون ويصـومون ويشـهدون أن لا إله إلا الله، بل ويدعون إلى الإسـلام ويجاهـدون في سـبيل الله ما دامـوا لم يبـايعوا أمـيرهم ويـدخلوا في عقيـدتهم!! وظن أولئك أيضـاً أن حقيقة الإسـلام قد ضـاعت منذ عصر الراشدين وإلى يوم ظهورهم هم حيث ظنوا أنهم فهموا من الإسلام وطبقوا منه ما لم يفهمه سلف الأمة ويطبقوا، وقالوا أن الزمان استدار كهيئته يوم بعث محمد صلى الله عليه وسلم مبشراً بهذا الدين، فكما أنه بعث في أقوام من الكفار يدعون إلى الهداية في الدين ولم يكونوا كذلك، فكذلك هم قد خرجـوا في كفـار يـدعون الإسـلام وليسـوا بمسلمين!!

وكـان لهـذا الكتـاب بحمد الله أثر بـالغ في قمع هـذه الفتنة العميـاء فقد عصم الله به كثيراً من شباب الجيل الإسلامي المعاصر، وهدى الله به من شـاء له الهدايـة، والحمد لله على منه وتوفيقه.

وكذلك هدى الله بهذا الكتاب والحمد لله وحده خلقاً كثيراً ممن اكتفوا بالنسبة للإسلام فقط ولم يقيموا الإيمان الواجب والشريعة الواجبة، فشرعوا يدخلون في الدين دخـولاً حقيقياً.

وكنت أتمـنى منذ أن كتبته أن ييسر الله أن ألحق به فصلاً هامـاً، وهو موقف المسـلم من إخوانه المسـلمين، أعـني وجـوب المـوالاة بين المؤمـنين، وكـذلك موقفه من الكافرين على اختلاف مواقفهم من المسلمين، أعني وجوب البراء من الكـافرين، وقد يسر الله أن ينزل هـذا الفصل في رسـالة مسـتقلة بعنـوان (الـولاء والـبراء). وقد جـاء الوقت بحمد الله الذي يسر الله فيه جمع هـاتين الرسـالتين في رسـالة واحـدة، وبهـذا يتضح السبيل لإخواننا في التمييز بين المسلم والكافر، وحقيقة الإيمان وحقيقة الكفـر، وفي كيفية موالاة المسلم لأخيه المسلم، وكيفية براءته من الشرك والكفر وأهله.

وعلى عـادتي حـاولت ما أمكنـني أن أكتب بأيسر عبـارة مسـتطاعة لي ليفهم هـذه الحقيقة أكبر عدد ممكن ممن يقرؤها.

هذا وأسأل الله سبحانه وتعـالى أن ينفعنا بما علمنا وأن يقينا وإخواننا المؤمـنين سـبل الغواية وطريق المتنطعين الهالكين والمفرطين الضالين، والحمد لله رب العالمين.

بنها: السادس من رمضان المبارك سنة 1401هـ

الموافق 8/7/1981م

عبد الرحمن عبد الخالق

الفصل الأول

أولاً: مدخل إلى الموضوع

قبل عـرض القضـايا الـتي سـيتحدد الحكم بعـدها لا بد أولاً من فهم مـدلول هـاتين الكلمـتين: الإيمـان، والكفـر، ثم إرسـاء القاعـدة المعلومة وهي: التفريق بين الكفر والكـافر، وذلك أن الكفر قد يصـدر قـولاً أو فعلاً ممن لا يجـوز أن نحكم عليه بـالكفر "وسيرى القارئ بحول الله بياناً تاماً لهذه القاعدة بأدلتها.

الإيمان ما هو؟ وما حقيقته؟

لنفهم مدلول كلمة ما -وردت في القرآن أو السـنة- لا بد من معرفة لمـدلولها العـربي أولاً، ثم نتتبع اسـتعمال الشـارع لها في أوضـاعها المختلفـة. ولا يجـوز بتاتـاً أن نجعل عرف الناس في زمان ما أو مكان ما -غـير زمن التشـريع- حكمـاً على اللفـظ. وهـذه الكلمة (الإيمان) من الكلمـات الـتي لا يجـوز تفسـيرها إلا بالمعـاني الـتي أرادها اللـه، وأرادها الرسول صلى الله عليه وسلم وبهذا يتحدد معناه الشرعي.

إذا تتبعنا وجـوه اسـتعمال هـذه اللفظة لكتـاب الله وجـدنا أنها تـدور على قطـبين أساسيين:

(أ) الأول التصديق.

(ب) الثاني العمل أو الالتزام بالعمل.

فمن أدلة المعـنى الأول قـول الله لإبـراهيم عنـدما طلب منه أن يريه كيف يحـيي الموتى: {قال أو لم تؤمن}؟ {قال بلى ولكن ليطمئن قلبي} (البقـرة:260)، وقوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف الذين جاءوا أباهم عشاء يبكون وقد حملـوا معهم قميص أخيهم يوسف ملطخاً بالدم: {وما أنت بمـؤمن لنا ولو كنا صـادقين} (يوسـف:17) أي بمصدق خبرنا في أكل الذئب ليوسـف. وكـذلك قوله تعـالى حكاية عن فرعـون عنـدما أتـاه الغـرق وأيقن بـالهلاك: {آمنت أنه لا إله إلا الـذي آمنت به بنو إسـرائيل وأنا من المسلمين} (يونس:90) أي صـدقت وأسـلمت. ولا يخفى أن آمن تتعـدى إلى مفعولها بحـرفي جر البـاء واللام. فـأقول آمنت بالله أي صـدقت بأسـمائه وصـفاته وأذعنت له وآمنت للرسول الذي يدعونا إليه أي صدقت بخـبره الـذي يخـبر به عن ربـه. ومن ذلك قوله تعالى: {وما أنت بمؤمن لنا} (يوسف:17) أي بمصدقنا، ومنه أيضـاً قوله تعـالى: {فما آمن لموسى إلا ذرية من قومـه} (يـونس:83) أي ما صـدق خـبره بـالخروج من مصر وإعزاز بني إسرائيل وإهلاك الله لفرعون على يدي موسى إلا شباب وصـغار من بني إسرائيل.

وبهذا يظهر الشق الأول لمعنى الإيمان وهو التصديق بخبر الله وخبر رسوله صـلى الله عليه وسلم، وقد جمع الرسول صلى الله عليه وسلم أصول ذلك في الحديث الصـحيح وذلك عنـدما سـأله جبريل عن الإيمـان قـال: [أن تـؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسـله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره من الله تعالى] (حديث جبريل المشـهور رواه مسلم).

وأما الشق الثـاني لمعـنى الإيمـان فهو العمل نفسه أو الالـتزام بالعمل وأعـني بـالعلم (عمل الإيمان) أي مجموعة الأعمال التي يسمى صاحبها مؤمنـاً ومجموعة المخالفـات التي يسمى تاركها مؤمناً.

فما ورد من القـرآن قوله تعـالى رداً على من قـال من المسـلمين: ما شـأن إخواننا الـذين مـاتوا ولم يصـلوا إلى الكعبـة؟ وذلك بعد أن حـولت القبلة إلى الكعبة بعد بيت المقدس قال تعالى: {وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كـانت لكبـيرة إلا على الـذين هـدى الله وما كـان الله ليضـيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم} (البقرة:143).

قال العلماء (إيمانكم) أي صلاتكم، أي وما كـان الله ليضـيع صـلاتكم السـابقة إلى بيت المقدس لأنه هو الذي أمركم بها وكذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: [الإيمـان بضع وسـتون شـعبة: أعلاها قـول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريـق] (أبو داود والنسائي وابن ماجه، ورواه البخاري بضع وستون)، فقد سمى الرسول صلى الله عليه وسلم هنا جميع أعمال الإسلام من الشـهادتين إلى أدنى عمل وهو رفع الأذى عن طريق المسلمين إيماناً.

وقد جـاءت الآيـات الكثـيرة جامعة بين المعنـيين وذلك في وصف المؤمـنين ومن ذلك قوله تعالى: {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بـأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} (الحجرات:15).

وبهذه الآية يتحـدد معـنى الإيمـان بشـقيه فالإيمـان هو التصـديق بالله ورسـوله وعـدم الشك في ذلك والجهاد بالمال والنفس في سـبيل اللـه. ولا شك أن الجهـاد يشـمل ما دونه من أعمال الإسلام لأن الجهـاد هو الـذروة من أعمـال الإسـلام، فلا ينبعث الجهـاد في سبيل الله تارك للعمل الواجب كالصلاة والزكاة والحج مثلاً وقـول الله {أولئك هم الصـادقون} يـوحي بـأن هنـاك من يـدعي هـذه الـدعوى بلا برهـان، وهم كـاذبون في دعواهم، أو لم يتصوروا حقيقة الإيمـان تصـوراً صـحيحاً وظنوها مجـرد إعلان باللسـان والآية هذه نازلة في قوم على هذا النحو، وكون هذه الآية بأسلوب الحصر {إنمـا} يفيد أن من ليس كذلك ليس مؤمناً، وانظر أيضاً إلى ما يشبه هذه الآية من كتاب الله:

قـال تعـالى: {إنما المؤمنـون الـذين إذا ذكر الله وجلت قلـوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقنـاهم ينفقـون أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم} (الأنفال:2-4).

فوجل القلب أي خوفه وخشـيته وزيـادة الإيمـان أي التصـديق في القلب وتأكيـده، والتوكل على اللـه. كل هـذا اسـتجابة حسـية يحسـها القلب المـؤمن، ومعـنى هـذا أن الإيمان ليس مجرد تصديق خامل في القلب وإنما هو تصـديق مسـتجيب حي. ثم يـأتي بعد ذلك إقامة الصلاة، وإيتاء الزكـاة وهما عملان من أعمـال الإيمـان ويعقب الله على هذا بقولـه: {أولئك هم المؤمنـون حقـاً لهم درجـات عند ربهم ومغفـرة ورزق كـريم} والآية قد جـاءت هنا أيضـاً بأسـلوب الحصر {إنما المؤمنـون} ثم عقب الله بقولـه: {أولئك هم المؤمنون حقاً} ليفيد بأن هناك إيماناً غير حـق، إيمانـاً بـاطلاً، وسـتعلم أن هذا الإيمان الباطل. إما أن يكون دعوى بلا دليل عليها، أو أنه التصديق بخرافة ووهم.

وبهذا نفهم أن الإيمان في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم له معنيان:

الأول: هو تصديق خبر الله تعالى وإخبار رسوله صلى الله عليه وسلم.

الثاني: هو الالتزام بالأوامر التي أمر الله بها هؤلاء المصدقين.

وهنا سنصل إلى هذا السؤال: هل يجوز أن نحكم بالإيمان لمن صـدق بقلبه فقـط، ولم يلتزم بالعمل؟ وبمعـنى آخر هل يكـون مؤمنـاً ناجيـاً من شـهد أن لا إله إلا الله بقلبـه، ولكنه لم يعمل ما أمره الله به؟ ولم ينته عما نهاه الله تعالى عنه؟

والجواب على ذلك يتضح -إن شاء الله- بما يلي:

إن الفصل بين عقيـدة القلب (تصـديقه) وبين الإذعـان، والتسـليم لأمر الله وفعل ما يطلبه سـبحانه من المـؤمن، فصل لتقـريب هـذه الدراسة من الفهم، وليس له في الواقع حدوث ولا ظل فإنه لا يتصور عقلاً وجود إنسان ما يسمع كلام الله يقول له: أي عبدي إن هناك يوم قيامـة، فيه سأحاسـبك على أعمالك فـإن أحسـنت أدخلتك الجنـة، وإن أسأت أدخلتك النار، ثم يقول رداً على ذلك: أي رب إن أصـدق كلامـك، وأؤمن بما تقول، ولكني أعتذر عن العمل بأوامرك لأنني كسول.. وقد أوضح هذه المسألة الإمـام ابن القيم -رحمه الله- حيث يقـول: لا يعقل إيمـان رجل يعلم وجـوب الصـلاة، ويسـمع نـداء الله تبـارك وتعـالى كل يـوم وليلة من حياته يناديـه: حي على الصـلاة، وهو لا يستجيب لهذا النداء مرة واحدة في حياته.. ولقد كنت أضـرب مثلاً لإخـواني على هـذه الحقيقة فأقول لهم:

- يا إخوة! أرأيتم لو أن قائلاً قال لنا ونحن جلوس الآن إن هـذا المكـان تحيط به النـار وإن لم تفـروا الآن لحقت بكم وأهلكتكم أيبقى منا أحد -يصـدق هـذا الخـبر- إلا بـادر بالخروج والهرب؟؟ أو يعقل أن ترى بيننا إنسـاناً يقـول لـذلك النـذير يا أخ لقد سـمعنا مقالتك وفهمنا تحذيرك، ولكنني أعتذر عن القيام من مكـاني لأنـني كسـلان!.. إذا وجد شخص بهذا الطراز فإنما هو مجنون أو مكذب بالخبر، ويستحيل أن يوجد عاقل يصـدق هذا الخبر، ويرد هذا الرد.

إن إيمان القلب وامتثال الجوارح، أعني الإذعان والمسارعة إلى فعل المأمور به قضية واحدة لا انفصال لها، فإن وجد الإيمان في القلب فإن صاحب هذا الإيمان سيبادر فوراً إلى العمل والإمتثـال، وهـذا دليل عقلي واضح لا يمـاري بعـده مقلد أعمـاه التقليـد، أو جاحد أو جاهل.

هذا وهناك أحاديث للرسول صـلى الله عليه وسـلم يفهم منها للنظر البـادئ أن إيمـان القلب وتصديقه يؤهل لدخول الجنة بعد عـذاب في النـار لا يعلم أمـده إلا اللـه، وأنه لا يخلد في النار خلوداً أبدياً كخلود الكفار المكذبين، وسأعرض لهذه الأحـاديث في ختـام هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.

والمهم هنا هو إثبـات أن تـارك العمل مسـتحق للـدخول في النـار، وهو من جملة المعاقبين قطعاً، وأما مسألة الخلـود فمسـألة أخـرى حقيقتها ثانويـة، وقد كـان لسـوء فهمها من جمهـور المسـلمين الأثر الأكـبر في خـروج طوائف كثـيرة منهم من حقيقة الإيمان إلى الكفر وهم لا يشعرون.

فناقش أخي المسلم نفسك: هل أنت حقاً مؤمن بالله؟؟ فـإن كنت لا تـؤدي ما فـرض الله عليك فراجع إيمانـك.. وسل نفسك دائمـاً هل أنت مـؤمن بالجنة حقـاً؟ فـإن كنت مؤمناً فلماذا تقعد عن طلبهـا؟ وهل أنت مـؤمن بالنـار حقـاً؟ فـإن كنت مؤمنـاً فلمـاذا تذهب بأقدامك إليها؟ وهل أنت بعد ذلك مؤمن بالله الواحد الأحـد.. فلم لا تسـعى إلى مرضاته؟ لم لا تحبه؟ لم لا تطيعه؟.

واعلم أن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم لو أرادها من النـاس كلمة لا امتثـال بها لسـارع النـاس إلى ذلك ولكنه أراد ما بعد الكلمة من أمثـال ولـذلك أخذ العهـود من الأنصار على النصرة، ومن المهاجرين على بذل المال وعلى الهجرة ومنها على الموت في سبيل الله. وأنه ما وعد كل أولئك إلا الجنة بعد كل هذا العمل والجهـاد.. فهل يظن بعض ضعاف النفوس أن تكون بعدها عنـاء في ركعـات وسـجدات، ولا يخـرج من ماله قرش في سبيل اللـه، ولا يقـول لله كلمة حـق، ويـزعم بعد ذلك أن الجنة من نصـيبه. هيهات.. هيهات.. الإيمان عقيدة والتزام، تصديق وعمل. وليس هناك إيمان بغير هذا.

موضوع الإيمان وشرطه:

عرفنا أن الإيمان تصديق وعمل، وأنهما لا ينفكان، فإذا وجد التصديق وجد العمـل، وإذا انتفى التصديق انتفى العمـل، فما مضـمون هـذا التصـديق؟ وما موضـوعه؟ ما الأخبـار التي يجب على المؤمن التصديق بها؟

هذا التصديق يشمل جميع ما أخبره به الله سبحانه وتعالى من أمـور الغيب وكـذلك ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن كذب الله في جزء واحد مما أخبر به فقد نقض إيمانه وسيأتي بيان هذا -إن شـــاء الله تعالى- في مناقضات الإيمان. ولكن ليـدخل المـؤمن بـاب الإيمـان لا بد وأن يعتقد بأصول لازمة تتضمنها هذه الكلمة: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فما هـذه الأصـول اللازمة؟

(أ) أن يعتقد أن خالق هذا الكون ومسير أموره إله واحد أحد حي قدير يتصف بصــفات الكمال والجلال ويتـنزه عن كل صـفات النقص والعيب، وأنه لم يشـاركه أحد وليس له صاحبة ولا ولد وإن كان ما سواه فهو عبد مقهور مربوب له سواء كان ملكاً أو رسـولاً، أو جنياً أو أي شيء آخر.

(ب) أن يعتقد أنه لم يخلق هـذا الكـون سـدى ولا عبثـاً -لأنه تـنزه عن اللعب والعبث- وإنما خلقه لغاية وهذه الغاية هي قيام المؤمنين لربهم بالعبادة والطاعة، وأن الكافرين الذين لم يذعنوا لربهم ولم يؤمنوا به ملعونون مطرودون من رحمته.

(ج) أن يعتقد أن من حق الله تعـالى أن ينظم ويشـرع لخلقه لأنه هو الخـالق الموجـد، قـــال تعـــالى: {ألا له الخلق والأمـــر} (الأعـــراف:54) فما دام أن الخلق له فيجب أن يكون الأمر له. فالتشريع في جميع صوره حق لله تعالى والتعقيب على حكمه بالإلغــاء أو الإبطال كفر به ونقض للإيمان السابق.

(د) أن يعبد الله وحده بما شرعه سبحانه من عبادات، ويـدعوه ويرجـوه وحـده، وأن لا يتخذ في دعائه -بينه وبين الله- واسطة لأنه قريب يجيب دعـوة الـداع إذا دعـاه. ويقبل التائبين ويحب المستغفرين. ومن اتخذ إلى الله واسطة ميتة يدعوها من دون الله فقد أشرك مهما كانت منزلة هذه الواسطة.

(هـ) أن يصـدق بـالبعث والجنة والنـار وبكل ما قص الله من أخبـار سـالفة أو آتية دون الرجـوع في ذلك إلى عقله وقياسه فما وافق عقله قبله وما خالفه رده لأن هـذا نقض للإيمان.

وذلك أن أعمال العقل في شأن الإيمان يكون أولاً بالتعرف على صـدق الرسـول فيما يخـــبر به عن ربه فنحن نفتش عن الرســـالة ونستقصي خبرها حـــتى نعلم يقينـــاً أن الرسـول صـادق فـإن آمنا بصـدقه أخـذنا أخبـاره الغيبية بعد ذلك دون ردها إلى عقولنا ومفهومنا لأن العقل لا يفهم إلا الواقع المشاهد، ويستبعد غير المألوف المعتاد وإلا فما هي المعقولية والقياس بالنسبة للصراط الذي هو أدق من الشـعرة وأحد من السـيف، ومع ذلك يمر المؤمنـــون عليه كـــالبرق وكـــالطرف وأجاويد الخيل والركـــاب.. وما المعقولية في أن يدفن رجلان في قبر واحد فيكون أحدهما في روضة من رياض الجنة والآخر في حفرة من حفر النار؟!

هـذه أصـول عقيـدة الإسـلام الـذي لا يعتد بإيمانه أحد يخـالف أصـلاً منهـا، وهـذا هو المضمون لشهادة أن لا إله إلا الله، والـذي يجب على كل مسـلم التصـديق بـه. وبهـذا نكون قد عرفنا مضمون الشطر الأول من معاني الإيمان وهو التصـديق. فما مضـمون العمـل؟ هل يجب الالـتزام بكل أوامر الله تبـارك وتعـالى وأوامر رسـوله؟ أم بـالبعض دون البعض؟ وما نوع البعض الذي فيه الالتزام؟ وللجواب على هـذه الأسـئلة لا بد من بيان أمور:

أولاً: في كل عبـادة عملية جانبـان من الامتثـال: الجـانب الأول هو الجـانب الاعتقـادي، والثاني هو التنفيذ أو الامتثال، ومثال ذلك القتال: يجب اعتقاد فرضيته على كل مسلم، ثم يجب تنفيــذه إذا تعين على كل فــرد معين أو جماعة معينة وذلك بشــروط معروفة في كتب الحديث والفقه. ولذلك يقول رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: [من مـات ولم يغز، أو يحدث نفسه بغزو، مات على شعبة من نفاق] (مسلم وأبو داود والنســائي وأحمد). فتحديث النفس هو الجانب الاعتقادي ومعناه التهيئة النفسـية اللازمـة. فيجب على كل مسلم اعتقـاد وجـوب القتـال على مجمـوع الأمة بقوله تعـالى: {كتب عليكم القتال وهو كره لكم} الآية (البقرة:216) والقيام به عند تعيين ذلك.

وليس هـذا في شـأن القتـال وحـده بل في كل أمر واجب فإنه يجب على كل مسـلم اعتقاد وجوبه أولاً ثم أداؤه عملياً إذا لم يحل بينه وبينه عذر أو ضرورة شـرعية. وهـذا الجـانب الاعتقـادي نفيه (كفـر) وهو ما يسـميه العلمـاء (الجحـود) يقولـون: من جحد وجوب الحج كفر. أي من لم يؤمن أن الله فرض عليه الحج عند الاستطاعة فهو كافر.

ثانياً: والجانب الثاني هو التنفيذ وهو أداء العمل ذاته، ويفرق العلمـاء بين تـرك الجـانب العملي (التنفيذ) كسلاً وبخلاً أو بعذر ما غير مقبول شرعاً كمن يـترك الصـوم تكاسـلاً عن تحمل مشقته ويترك الحج بخلاً ويترك القتال في سبيل الله المفروض عليه خوفـاً وجبناً، يفرقون بين هذا وبين ترك العمل الواجب جحوداً ونكراناً، فيعدون الأول عاصـياً والثاني كافراً.

ولكن هناك عبادة واحدة فقط اختلف علماء المسلمين في تركها كسلاً، فقال قوم من أهل الحديث وعلى رأسـهم الإمـام أحمد بن حنبل رحمه الله تاركها كسـلاً كـافر أيضـاً للأحـاديث المشـهورة المعلومة في كفر تـارك الصـلاة كقوله [العهد الـذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر] (رواه الإمـام أحمد وأهل السـنن. وقـال الترمـذي حـديث صحيح إسناده، على شرط مسلم) والحديث الآخر [بين المرء وبين الكفر ترك الصلاة] (رواه أصحـاب السـنن وصحـحه الترمـذي) (وللآثـار عن السـلف) كنا لا نعد عملاً من الأعمال تاركها متكاسلاً أو محتجاً بأعـذار غـير شـرعية - وليس في تـرك الصـلاة كلية عذر شرعي يقولون عنه مسلم عاص، ولا فرق بين تـرك الصـلاة الواجبة وتـرك غيرها من الأعمال الواجبة، ويؤولون الأحاديث السالفة بأن المقصود تاركها جحوداً أو أنه كفر أقل من الكفر المخرج من ملة الإسلام فهو كفر معصية فقط.

والحق الذي لا غبار عليه في هذه المسألة -إن شـاء اللـه- أن تاركها كلية لا يتصـور أن يكون من جماعة المؤمنين وسيفهم هذا من يفهم معـنى الإيمـان السـابق بشـقيه وأنه عقيـدة وعمـل، وقد ذكـرت ما أورده العلامة ابن القيم رحمه الله في هـذا الصـدد، إذ كيف نعتبر مؤمناً بالله وبالجنة وبالنار من يسمع هذه القـوارع تقرعه بـالكفر والعـذاب وهو لا يستجيب لذلك. ويعتذر عن الامتثال بمجرد أنه كسـلان يسـتحيل عقلاً أن يكـون أمثال هؤلاء من المؤمنين.

هذا وبقية العلماء والأئمة لا يمانعون في كفر تارك الصلاة تبعاً للنص ولكنهم يـأبون أن يسوى بالكفر مطلقاً الجاحد للتوحيد ويرون أيضاً أن كفـره يسـتحق عليه دخـول النـار ولكنه لا يخلد فيهاً أبداً خلود الكافر. وعلى كل حال فإن عامة النـاس وجهـالهم الـذين تركوا الصلاة متكلين على مجرد الاعتقاد بوجوبها إن فحصوا إيمانهم واختبروه ورجعـوا إلى أنفسهم علمـوا أنهم لا يملكـون من الإيمـان شـيئاً، وأنهم مغـرورون بأمـاني كاذبة تشبه أمـاني اليهـود والنصـارى في دخـول الجنة بمجـرد الانتسـاب إلى الـدين، ويجعل

عـذاب الله -إن لحقهم، وهو فـرض ضـعيف عنـدهم- إنما هو لأيـام معـدودة فوالله ما أشبه هذا بقول الله تعالى عن اليهـود، {وقـالوا لن تمسـنا النـار إلا أيامـاً معـدودة قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف عهـده أم تقولـون على الله ما لا تعلمـون} (البقـرة: 80).

وسيبقى الخلاف محصوراً -بشأن تارك الصلاة- في الخلود في النار أو عدمه، والمسلم الذي يعول على مثل ذلك سـاقط ضـعيف إذ دخـول النـار وحـده كـاف ولو لدقيقة من الزمن بل عذاب الموقف وحده وهو خمسين ألف سنة كأيام الدنيا شيء عظيم وحــده يجب أن يفر المؤمن منه.

ولعل من أعظم أدلة كفر تارك الصـلاة وبقائه في النـار زمانـاً لا يعلمه إلا اللـه، هو أنه لم يرد له في الموقف عقوبة مطهرة كما جاء لتارك الزكاة مثلاً.

وخلاصة هـذا الأمر أن العمل -بوجه عـام- من لـوازم الإيمـان لأنه نصف معنـاه، ويجب اعتقاد وجوب العمل الواجب واستحباب المستحب، وتحريم الحـرام وهكـذا... ثم فعل الواجب وتـرك الحـرام، وقد اتفق العلمـاء على أنه لا يكفر من تـرك عملاً من أعمـال الإسلام إلا الصلاة، فقد قال يكفر بتركها كفراً مخرجاً من الملة الإمام أحمد ومن تابعه وطائفة أخرى من العلماء والسلف.

وبعد هـذا البيـان بشـأن العمل الـواجب سـيكون الأمر واضـحاً بشـأن العمل المحـرم، فاعتقــاد تحريمه واجب ويكفر من اعتقد بحلية الخمر والزنا والســرقة والقتل وهكــذا سائر المحرمات المعلومة والمنصوص عليها في كتاب الله أو سـنة رسـوله صـلى الله عليه وسلم. فمن أحل شـيئاً من ذلك أو اسـتحله لنفسه فهو كـافر بإجمـاع المسـلمين وليس لهذا مخالف، ولا شك أن المطالبة بتحليل ما حرم الله كفر مخرج من الملة لأنه في حقيقته محاربة لدين الله وحرب له، وتسفيه لقـانون الله ونظامه وشـريعته. وهـذا هو سر كفر مستحل الحرام إذ هو في حقيقته معترض على تشريع الله، والاعـتراض لا يصدر إلا عن مستصغر لأمر الله وهذا فيه نسبة النقص إلى الله وهو الكفر.

ومن فهم هذا الأصل عرف لماذا طرد الله إبليس من رحمته ولعنه بمجرد أن قــال لله تبــارك وتعــالى: {أأسـجد لمن خلقت طينــاً}؟.. (الإســراء:61) لأن في هــذا القــول استصــغاراً لأمر اللــه. واعتراضــاً على حكمته فكل من قــال ومــاذا في الخمر حــتى يحرمها اللــه؟.. أو قــال: إن الزنا عملية طبيعية لا دخل للأخلاق والــدين والتقاليد فيها فهو كافر كفر إبليس عليه لعنة الله وغضـبه. وهـذا الأمر نفسه ينصـرف إلى من أمـره الله بعمل واجب فقال لا أفعل ولا أذعن لأمر الله فما هـذه الصـلاة؟ وما الزكـاة؟.. بل إن مثـال إبليس ألصق بها لأن إبليس كـان مـأموراً بـواجب ولم يكن منهيـاً عن حـرام. والأمر أن مســتويان، فــإن حصل جحــود الــواجب وإنكــاره فهو كفــر، وإذا حصل فعل الحرام واستحلاله فهو كفر وليس لهذا الأمر مخالف في علمـاء المسـلمين والحمد لله رب العالمين.

هذا ولم يختلف علمـاء المسـلمين في عـدم تخليد فاعل معصـية في النـار إلا في قتل النفس المؤمنة ولم يطلق أحد من العلماء الكفر على فاعل ذلك وقـولهم بـالخلود في النار إنما كان لقوله تعالى: {ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً} (النساء:93).

ولقد قـال بعض علمـاء السـلف بـذلك والبعض يقـول: أنه خلـود لا تأبيد معه أي مكث طويل يخرج بعده من النار جمعاً للآية والآيات الأخرى والأحاديث التي تـبين أنه لا يخلد في النار إلا الكفار فقط، وأن من قال لا إله إلا الله فإنه تنفعه يوماً من عمره.

فإذا عرفنا أن الجانب الاعتقادي لازم لكل مسلم في مسـائل العمـل، وأعـني بالجـانب الاعتقـادي ما أوضـحته آنفـاً وذلك كاعتقـاد وجـوب الصـلاة، والزكـاة والحج والقتـال، وتحريم القتل إلا بالحق، والزنا والسرقة وشرب الخمـر، وأنه ليس مسـلماً من خـالف هذا الاعتقاد. بقي علينا أن نفهم كنه هذا الاعتقاد وأثره في النفس.

أما هذا الاعتقـاد فمعنـاه بالنسـبة للصـلاة مثلاً: أن يصـدق بـأن الله فـرض عليه خمس صلوات في اليوم والليلة وأن لا يجحد ذلك لا بقلبه ولا بلسانه، فـإن لم يصـدق أو جحد فقد كفر وهذا أمر لا خلاف فيه بين علماء المسلمين والحمد لله رب العالمين. فلنـأت إلى أثر هذا في النفس إذا تصورنا مسلماً يشـهد أن لا إله إلا الله وأن محمـداً رسـول الله، ويعتقد بوجوب خمس صلوات في اليوم والليلة، ويسـمع الوعيد الشـديد والتهديد العظيم على من فرط في ذلك.. ألا يورث ذلك فيه سمعاً وطاعة، اللهم نعم.. من قال بغير ذلك فقد أخطأ، هب أنه تكاسل وغلبته أهواؤه يوماً ألا يورث ذلك في قلبه حسرة وألماً، ألا يتحرك قلبه خوفاً أن يكون مشـمولاً مع جملة المعـذبين الـذين توعـدهم الله بترك الصلاة؟ اللهم نعم.. فإن لم يتحرك قلبه حسـرة ولا نـدم ولا بخـوف من عقوبـة، فكيف يسمى هذا مؤمناً باللـه؟؟.. وهنا قد شـهدنا له هـذه الشـهادة الجـائرة وهو يصر على ترك الصـلاة طيلة حياته حـتى يلقى ربه الـذي يـؤمن بـه.. فلـيراجع إيمانه رجل لا يؤدي الصلاة. وليتق الله مؤمن يشهد بالإيمان لرجل يحكم رسول الله بكفـره. ويشـهد الله بالعذاب له، ويشـهد كل عقل سـليم أنه لا يجتمع الإيمـان بالله ومعصـيته المطلقة في قلب رجل أبداً.

وهذا الجانب الاعتقادي سيكون واضحاً أيضاً إن شاء الله في شأن المعصية، فأول أمر يجب على المسلم تجـاه المعصـية أن يعتقد بحرمتها عليـه. فاعتقـاد حرمة الزنا واجب ومن لم يصدق ربه في ذلك وكابره واستحل ما حرم فقد كفر. وهـذا التصـديق يـوجب الحذر والخوف من مقاربة الإثم وفعل المعصية، فإن غلبت الشـهوة والطبيعة والهـوى فسـقط المـؤمن وعصـى، فلا نقـول كفر وإنما عصى ولكن اسـتحق العقـاب وعـرض نفسه لسخط الله فإن كان مؤمناً بذلك تألم وخاف. فإن لم يحصل خوف ولا تـألم، ولا تذكر بعقوبة الله فقد كفر، ويستحيل عقلاً أن تتصور مؤمنـاً يشـرب الخمر أو يـزني أو يفعل معصــية ما تحت ظــرف من الظــروف ثم يمر الظــرف، ويعــود إلى الصــواب والرشد، ولا يرد على قلبه سحابة من خـوف الله ولا ألم مما جنت يـداه، ولا خـوف أن يسأل عن ذلك غداً أمام مالك يوم الدين. بل يمر في معصيته غـير عـابيء بشـيء، ولا مهتم لأمـر.. حاشا وكلا أن يكـون هـذا من جملة المؤمـنين. ولقد وصف الله الإنسـان الكافر بهذا الوصف فقال: {لا أقسم بيوم القيامة *ولا أقسم بالنفس اللوامة *أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه؟ *بلى قادرين على أن نسوي بنانه *بل يريد الإنسـان ليفجر أمامه *يسأل أيان يوم القيامة} (القيامة:1-6).

فالإنسان الذي {يفجر أمامه} أي يلوي في فجوره غير عابيء بشيء هو المكذب بيوم القيامة {يسأل أيان يوم القيامة}؟ أي يستبعد وقـوع ذلك وما حمله على الانطلاق في المعصية إلا الكفر بيوم القيامـة، فكيف يكـون مؤمنـاً من ينطلق من معاصـيه ولا يهتم يوماً ما بأنه مسؤول عما جنت يداه؟.. ومع ذلك فلا نحكم بكفر على مرتكب المعصـية ولا المداوم عليها، لأن الندم الذي نشترطه له حتى يكون مؤمنـاً لا يطلع عليه إلا عـالم

السـرائر، ولكننا نقـول لفاعل المعصـية والمـداوم عليهـا: إن لم تنـدم على فعلتك ولم يتحــرك قلبك خوفــاً من جريمتك فراجع إيمانــك، فــإن كنت مؤمنــاً فلا بد أن تخــاف العقوبة وإن كنت غير ذلك فلن تهتم لها ولن تأبه أخالفت أمر ربك أم لم تخالف.

هذا الذي قدمت هو مضـمون الإيمـان ولازمـه، فالعمل من لـوازم الإيمـان وهـذا قـول عامة السـلف لهـذه الأمة وأما الـذين قـالوا (لا يسـتلزم الإيمـان العمل ولا يضر معه معصـية)، فهم المرجئة الخلفيـون الـذين جعلـوا الإيمـان حقيقة مجـردة لا واقع لها في الحيــاة ولا ظل له فيهــا، ولا أثر له في النفس، وقــولهم ظــاهر الســقوط والبطلان فالفصل بين الإيمــان بالله والانصــياع لأمــره والرضا بحكمه هو في حقيقته فصل بين متلازمين، وما أشبه قولهم بمن يقول: (الدين علاقة بين الإنسان وربـه) يريـدون بـذلك فصل الدين عن واقع الحياة وإصلاح النفوس وهذا القول نفسه هو قول القائل (الــدين لله والوطن للجميع) يريدون بذلك ترك أمر تنظيم المجتمع حسب شريعة الله وعقيدة الإسلام. أقول هذه الأقـوال جميعها تجتمع عند غاية واحـدة، وإن اختلف قائلوها شـكلاً وموضوعاً وهي إفلات المجتمع وحياة النـاس من عقيـدة الإسـلام وشـريعته وهـذا أمر خطير جداً. فلينظر الداعون إلى الله أي منهج يسلكون؟ وأي عقيدة يحملون؟

ويبقى في هذا الفصل من هـذه الرسـالة الإجابة على هـذا السـؤال، وما مقـدار العمل الواجب واللازم لإظهار حقيقة الإيمان؟

ولن نسـتطيع أن نـذكر مقـداراً محـدداً للعمل اللازم وكمية منصوصــاً عليها وذلك أن العمل الواجب يختلف باختلاف الظروف والأحوال والأشخاص، والضـرورات الشـرعية. فمقـدار العمل الـواجب المسـموح به للمـؤمن في مجتمع ما يختلف قـدراً وكيفية عنه في مجتمع آخر، ومقدار الضرورة التي تبيح المحظور تختلف مع الشخص في حالة عن حالـة، فهل يجـوز أن نلـزم مسـلماً يعيش في مجتمع كـافر يحـارب الإسـلام أن يظهر إسـلامه ويعلنه ويـؤدي الشـعائر في أوقاتها وقد يتعـرض في سـبيل ذلك إلى الطــرد والإبعاد والحرمان من دراسـته. وهل يكـون هـذا الحكم، أعين السـماح لهـذا الشـخص بإخفـاء عقيدته وإيمانه هو الحكم لشـخص آخر يعيش بين كفـار لا يعـادون الإسـلام ولا يتعرضون لم يخالفهم في دينهم وعقيدتهم.

إن مقدار العمل اللازم للإيمان سيحدده الظرف والمجتمع وحكم المؤمنين المخلصــين الذين يقبل الله شهادتهم كما قال تعالى: {وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونـوا شـهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً} (البقرة:143). وقد أخبر الرسـول أن هـذه الأمة شهادتها عند الله مقبولة، فقد حملت جنـازة فـأثنى عليها المؤمنـون خـيراً فقـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: [وجبت.. قـالوا: ما وجبت يا رسـول اللـه؟ قـال: حملت جنازة فأثنيتم عليها خـيراً فقلت وجبت أي الجنـة، وحملت جنـازة فـأثنيتم عليها شراً فقلت وجبت أي النـار أنتم شـهداء الله في أرضـه] (البخـاري ومسـلم والترمـذي وغيرهم).

وهذا الحديث بالطبع لا يقتضي الحكم بالكفر والإيمان كحكم نهـائي لأن التقـييم الأخـير إنما هو لله سبحانه وتعالى العليم بالسرائر، ولكنه شاهد على أن العمل الظـاهر غالبـاً ما يدل على الاعتقاد الباطن، ولذلك صـوب رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم الحكم بشهادة المؤمنين. ولن يستطيع مجمـوع المؤمـنين في مجتمع ما تكفـير رجل لا يـؤدي شيئاً من الشعائر إلا إذا أعرب لسانه أنه ترك هـذا اسـتنكافاً لأمر الله عز وجل وعلـواً عليه، وحتى الصلاة التي لا يعتد بإيمـان رجل لا يؤديها لوقتها فـإن تكفـير تاركها مرتبط

دائماً بإقامة الحجة عليه وذلك لا يكون إلا بعد علمه بالآيات والأحاديث في شـأن تـارك الصلاة.

وخلاصة هـذا الأمر أننا لا نملك كمية محـددة من الأعمـال يلـزم بها من يقـول لا إله إلا الله ويكفر تاركها وذلك كما قلت لاختلاف الظروف والمجتمعات اختلافاً بيناً في زماننا ولكن هناك حكم المؤمنين المخلصين في كل مجتمع على أنفسهم وعلى غيرهم، وهذا الحكم مقبـول عند الله بوجه عـام، ولا يجـوز أن يحكم على شـخص تـارك للعمل بمقتضى لا إله إلا الله إلا بـأن يعـرب لسـانه أنه ما تـرك العمل إلا اسـتنكافاً لأمر الله وعلواً عليه.

وعل كل هناك قضيتان لا بد من الفصل بينهما.

(أ) القضية الأولى: قضية حقيقة الإيمان والكفر.

(ب) والقضية الثانية: تطبيق هذه القضـية أعـني الحكم على شـخص ما أو مجموعة ما بالكفر، والحكم لشخص ما أو مجموعة ما بالإيمان، ونحن ما زلنا بصدد القضـية الأولى وهي بيـان حقيقة الإيمـان وحقيقة الكفـر، وأما القضـية الثانية فلها شـروط وآداب وحيثيات سنتعرض لها في فصل آخر من فصول الرسـالة. والمهم هنا إثبـات أن العمل من شـروط الإيمـان، وأن تحديد الكمية غـير وارد لما بينت آنفـاً. ولا يقـدح هـذا في اشتراط العمل.

الفصل الثاني

نواقض الإيمان

عرفنا في الجزء السالف مضمون الإيمان وأنه تصديق الله عز وجل فيما يخبر فيه عن نفسه وصفاته وملائكته وكتبه ورسله وقضائه وقدره واليوم الآخـر، كل ذلك على النحو الذي بينه سبحانه أو بينه رسوله صلوات الله وسلامه عليه، وعرفنا شرط الإيمـان وهو العمل بشقيه: العمل الواجب الذي يجب أن يسارع المؤمن إليه، والعمل المحرم الذي يجب على المـؤمن الفـرار منه والبعد عنه والـذي يجب أن نعرفه أيضـاً، أنه على قـدر ثبـات مضـمون الإيمـان وظهـور حقيقته في النفس يكـون تحقيق شـرط الإيمـان وهو العمـل. فـالملتزمون العـاملون بـأوامر الله هم الصـادقون في دعـوى الإيمـان، والمفرطون المخـذولون هم الكـاذبون الغاشـون لأنفسـهم. فـإذ قد ظهـرت لنا حقيقة الإيمان على هذا النحو وجب علينا أن نعرف أن هذه الحقيقة لها نواقض تنقض عراهـا. وتعري صاحبها منها. فالرجل قد يتصف بحقيقة الإيمان التي أسلفت القول فيها، ولكنه يرد على قلبه اعتقاداً ما، أو يعمل عملاً ما فإذا به خـارج عن حقيقة الإيمـان داخل في إطار الكفر، فما هـذه الأقـوال والأعمـال الـتي تخـرج صـاحبها عن حقيقة الإيمـان إلى الكفر والعياذ بالله؟؟.. والجواب: أن حصر هذه الاعتقادات التي يكفر بها صاحبها يخرج بهذه الرسالة عن حجمها المقدر لهـا، ولـذلك سـأورد الأصـول من ذلك والقصد بحـول الله هو بيان الحق في هـذه المسألة الخطـيرة الـتي نحن بصـددها، وقبل الإجابة على هذا السؤال لا بد من فهم هذه المقدمة:

إن الإيمان حقيقة كلية لا تقبل التجزئة.. إنه حقيقة كلية يندرج تحتها فـروع كثـيرة، ومع ذلك فإخراج فرعية واحدة من قضايا الإيمان وجحدها هو كفر ببقية القضـايا والمسـائل والفـروع الأخـرى. والأدلة على هـذه المقدمة مشـهورة واضـحة في كتـاب الله تبـارك وتعالى. قال تعالى: {أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الـدنيا ويـوم القيامة يـردون إلى أشد العـذاب وما الله بغافل عما تعملون} (البقرة:85).

وقال عز وجل: {إن الـذين يكفـرون بالله ورسـله ويقولـون نـؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً، أولئك هم الكافرون حقـاً واعتـدنا للكـافرين عـذاباً مهيناً} (النساء:150-151).

فهـذه نصـوص واضـحة صـريحة على أن الإيمـان والالـتزام يجب أن يكـون كليـاً غـير منقوص، وهاتان الآيتان وإن كانتا في شأن اليهود إلا أن العبرة بعمـوم لفظهـا، ولا شك أن ما يعيبه الله على قـوم يعيبه علينا إن فعلنا مثلهم . فالآية الأولى آية البقـرة بشـأن عمل، والثانية آية النساء، بشأن اعتقاد.

ففي الأولى: عــاب الله على اليهــود في المدينة انقســامهم ومحالفة بعضــهم للأوس وبعضـهم للخـزرج، ولقد كـانت تشب الحـروب بين الفـريقين فيقتل اليهـودي المـوالي للخزرج اليهودي الموالي للأوس ويساعد عليه عـدوه ويخرجه من داره والعكس أيضـاً، فإذا وضـعت الحـرب أوزارها اجتمع رؤسـاء اليهـود من كلا الفـريقين وجمعـوا الأمـوال وفادوا الأسـرى، وداووا الجـرحى.. من كليهما فـأنزل الله في شـأن ذلـك: {وإذ أخـذنا ميثــاقكم لا تســفكون دمــاءكم ولا تخرجــون أنفســكم من ديــاركم ثم أقــررتم وأنتم تشهدون *ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديـارهم تظـاهرون عليهم بــالإثم والعــدوان وأن يــأتوكم أســارى تفــادوهم وهو محــرم عليكم إخــراجهم أفتؤمنون ببعض الكتـاب وتكفـرون ببعض فما جـزاء من يفعل ذلك منكم إلا خـزي في الحيــاة الــدنيا ويــوم القيامة يــردون إلى أشد العــذاب وما الله بغافل عما تعملــون} (البقرة:84-85).

وأما الآية الثانيـة: فهي رد على اليهـود بشـأن تصـديقهم بنبـوة موسى وكفـرهم بنبـوة محمد وعيسى صــلوات الله وســلامه عليهم جميعــاً وهــذا تفريق بين الله ورســوله، والشـاهد من سـرد هـذه الأدلة بيـان أن قضـية الإيمـان قضـية كلية لا تقبل التجزئـة، وسيزداد هذا الأمر وضوحاً وبياناً عند التمثيل لكل ناقض من نواقض الإيمان على حده.

أما السبب في أن الإيمان ينتقض بانتقاض فرد واحد وقضية واحدة من قضاياه فهو أن الطعن في مسألة من العقيدة طعن في العقيدة كلها، فالذي يعتقد بأن الله هو الحكيم العليم قد آمن، فإذا ظن هذا أن هناك عملاً من أعمـال الله قد خلا من الحكمة أو جـاء على مقتضى الجهل فقد كفر بإيمانه السابق، والذي أعتقد بأن الله هو الرحمن الرحيم والذي يكفر برسول واحد هو الله سبحانه وتعـالى، فتعصب إنسـان ما لرسـول تعصـباً يحمله على الكفر بغيره هو طعن في مرسل الرسول نفسه وهو الله سـبحانه وتعـالى والكفر بالملائكة مثلاً تكذيب لله ومن كذب الله فقد كفر.

ومن هذا القبيل أيضاً استحلال المعصية إذ هو لله تبارك وتعالى. أنا لا أرضى حكمه ولا أرتضي حكمتك في تحـريم هـذا الأمر والـواجب أن يكـون حلالاً.. وهـذا رد لكل إيمـان سبق إن كان قد سبق إيمان، وكذلك الأمر بالنسـبة للمسـتكبر عن الطاعة فبيـان حاله

أنه يقــول لا أذعن ولا أفعل لأن أمــرك هــذا خــال من الحكمة وعــار عن العلم. وهــذه معصية إبليس عليه لعنة الله، فقد امتنع عن أمر الله تكـبراً واتهامـاً لهـذا الأمر بـالخلو عن الحكمة والعلم. ولهذا لم يصبح الأمر مجرد معصية وإنما أصبح قــدحاً في علم الله وحكمته وذماً لأمره، وهذا ناقض لكل إيمان سابق وعمل صالح سالف.

وبهذا التمهيد أرجو أن يكـون الأمر جليـاً واضـحاً في تطـبيق هـذه القاعـدة على بعض فروعها التي سأتعرض لذكرها بحول الله وإعانته. وليس القصد في عرض هذه الفروع الناقضة للإيمان هو الاستقصـاء، ولكنه التمثيل فقط لتتضح هـذه القاعـدة. وسـأتعرض بالــذات لما يكــثر عليه الخلاف والجــدل في زماننا وما يختلط فيه الحق والباطل والله أسأل الهداية إلى سواء الصراط.

كيف ينتقض الإيمان؟؟

حقيقة الإيمــان تــدور حــول الإيمــان بــذات الله وصـفاته الكريمة وكل مسـائل الإيمــان وقضــاياه تلتقي بهــذه الحقيقة الأولى. الإيمــان بالله العظيم الــرب الخــالق الــرحمن الرحيم الملك المهيمن العزيز الجبـار الـذي خلق الخلق لحكمة عظيمة والـذي لا يظلم ولا يعتري ذاته أي نقص من نوم أو غفلة أو ضعف أو مرض والقـائم على كل نفس بما كسبت والرقيب على كل شيء الذي لا تخفى عليه خافية، والذي يخلق ما يشاء ويختار ويفعل ما يشـاء ويحكم ما يشـاء ويقضي ما يشـاء ويـأمر بما شـاء وينهى عما شـاء لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، وما الإيمان بالملائكة إلا فرع عن الإيمـان بالله فالملائكة هم جنـده، وكـذلك الرسل الإيمـان بهم فـرع عن الإيمـان بـه، لأنهم رسـله والقـائمون بدعوته، وكذلك الشأن في كتبه فهي قانونه وتشريعه وكلامه، وكـذلك اليـوم الآخر فهو اليوم الذي ضربه سبحانه وتعالى موعداً لخلقه من الإنس والجن لفصل القضـاء بينهم. فالإيمان باليوم الآخر فرع عن الإيمان بالله وكذلك التكذيب بهذا اليوم كفراً باللــه، وما القضاء والقدر إلا فعله وتصريفه سبحانه وتعالى. ولـذلك كـان الاعـتراض على القضـاء والقدر بصورة مباشرة نقصاً للإيمـان باللـه، وسـيأتي لأمر هـذا الاعـتراض تفصـيل في مكان آخر إن شاء الله تعالى.

وبهذا تتضح الصورة الكلية للإيمـان وأنه ليس أجـزاء متفرقة مبعـثرة نسـتطيع أن نأخذ منها ما شئنا ونـترك ما شـئنا ونبقى بعد ذلك مؤمـنين. كلا، إن قضـية الإيمـان لا تتجـزأ ومسائله تنبع جميعها من الإيمان بالله الواحد سبحانه وتعالى. فلذلك كان الاعـتراض أو الرد أو التكذيب لمسألة من مسائله وقضية من قضـاياه كفـراً بالأصل الأصـيل وهو (لا إله إلا الله) ونقضاً لها.

فالمكذب بعذاب القبر مثلاً، أو الصراط الموصوف في الأحاديث الصـحيحة أنه أدق من الشــعرة وأحد من الســيف وأنه جسر مضــروب على جهنم يجــوز عليه المؤمنــون بأعمالهم، وبأن بعض الكفار يحشرون على وجوههم يـوم القيامـة، يسـيرون عليهـا، هو في حقيقة أمره مكذب بقدرة الله عز وجل ولا يفيده إيمانه السابق بقدرته المشـاهدة في الــدنيا. ولـذلك لما سـأل أحد الصـحابة رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم كيف يحشرون على وجوههم يا رسول الله؟.. قال صلى الله عليه وسلم: [إن الذي أمشاهم على أرجلهم في الـدنيا قـادر على أن يحشـرهم على وجـوههم في الآخـرة] (البخـاري ومسلم والترمـذي وأحمـد)، فـرد صـلوات الله وسـلامه عليه الأمر إلى القـدرة الإلهية

الـتي يـؤمن بها المـؤمن في الـدنيا. وقس على ذلك كل تكـذيب أو رد لأي مسـألة من مسائل الإيمان. ويجب أن يكـون هـذا الأمر واضـحاً أيضـاً بالنسـبة لمسـائل التشـريع، فالاعتراض على شعيرة ما من شعائر الإسـلام هو في حقيقته اعـتراض على المشـرع سبحانه وتعالى وهذا هو الكفر، فمن قال مثلاً عن السـعي بين الصـفا والمـروة امـرأة سعت بين جبلين من جبـال مكة وما شـأننا نحن بهـذا؟.. هو في حقيقته معـترض على المشرع سبحانه وتعالى. وقد سمعت أن بعض الحجاج من المسلمين في زماننا يقـول بذلك بل وبأكثر منه كالاعتراض على الطواف وتقبيل الحجر الأسود، ورمي الجمار، ولا شك أن هـذا الاعـتراض على هـذه المناسك هو كفر بحكمة المشـرع وعلمه سـبحانه وتعالى، وهذا هو الكفر المخرج من الملة والعياذ بالله.

فالاستهزاء بإعفاء اللحية أو الصلاة أو الحجاب الشـرعي للمـرأة أو المسـجد أو الكعبة أو الرسـول هو كفر بالله تبـارك وتعـالى، فكل ما ينسب إلى الله من أمر ونهي وذات والاستهزاء به والاعتراض عليه كفر ونقض للإيمان.

وأعني بالذات ما ينسب إلى الله من شيء كالكعبة والمسجد والمصـحف، فالاسـتهزاء بالمسلم لإسلامه كفر، ولا يتأتى هذا من مسلم أبداً. قـال الله تعـالى عن الكفـار: {إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضـحكون، وإذا مـروا بهم يتغـامزون} (المطففين: 29-30).

والشاهد أن كل ما ينسب إلى الله قد كرم والاسـتهزاء به إسـتهزاء بمن كرمه وأعـزه، ومن شرع له الطريق الذي يسير فيه. ومن هذا الباب أيضاً معاداة المؤمن لأجل تدينه وفتنته ليرجع عن دينه هذا كفر وصد عن سبيل الله تبارك وتعـالى. لأن الأصل أن يحب المؤمن لإيمانه ويقدم لإحسـانه، فـإذا عـادى شـخص ما المسـلم لأجل تمسـكه بدينـه، ولاعتصامه بكتاب ربه وسنة نبيه فقد كفر وصد عن سبيل الله تبـارك وتعـالى، أي جمع بين جريمتين؛ الكفر إحداهما والعياذ بالله، والسبب في هذا عداوة المسـلم لأجل تدينه هي في حقيقتها عداوة لدين الله، ومن عادى دين الله فقد عاداه وعدو الله هو الكـافر وأما المؤمن فإنه ولي الله لأن الله يقول: {الله ولي الذين آمنوا} (البقرة:257). وأما معاداة المؤمن لأجل شيء آخر فليس بكفـر، فمن عـادى مؤمنـاً في خصـومه ما على دنيا أو جاه فهي معصية لا يكفر بها.

وأرجو بهـذا البيـان أن أكـون قد أوضـحت الصـورة الكلية لحقيقة الإيمـان وكيف أنها تنتقض بانتقاض إحـدى جزئياتهـا. والله أسـأل أن يعصـمني وإخـواني المؤمـنين من أن ننقض إيماننا، وأن يرزقنا تكميل هذا الإيمـان حـتى نلقـاه سـبحانه وتعـالى وهو موفـور كامل.

وهـذا أوان بيـان بعض هـذه النـواقض على شـيء من التفصـيل وسـأذكر ما يكـثر فيه الوقوع -ولا حول ولا قوة إلا بالله- وما يكثر حوله الجدل والخلاف.

أولاً: الاعتراض على حكمة التشريع

لما خلق الله سبحانه وتعالى آدم، وأسكنه الجنة، أخبره سبحانه وتعالى أنه وطنه، ولما عصى آدم وأهبطه الله إلى الأرض كـانت فـترة حياته عليها وحيـاة ذريته فـترة اختبـار

وابتلاء يكون ثمرته العـودة إلى الجنة لمن جـاز هـذا الاختبـار بنجـاح، ليـدخل الجنة عن جدارة واستحقاق، والمصير إلى الجحيم لمن عطل القـوى الـتي آتاها الله إليـه، ولمن نسي التكريم الذي خلق من أجله. والاختبار والابتلاء إنما هو الأمر والنهي. قال العلمـاء من السلف في قول الله تبـارك وتعـالى: {أفحسـبتم أنما خلقنـاكم عبثـاً وأنكم إلينا لا ترجعون} (المؤمنون:115) قالوا: عبثاً أي سدى لا تؤمرون ولا تنهون..

وهذا الأمر والنهي هو التشريع سواء كان من العبـادات أم المعـاملات أم الأخلاق. فـإذا كان مقصود الخلق هو الابتلاء بالأمر والنهي فإن التشريع في هذه الصورة يصبح واجبـاً ملزماً، وفرضاً لا يجوز مخالفته لأنه غاية في ذاته من خلق الخلق وقد تولى ربنا بنفسه سبحانه وتعالى أمر هذا التشريع وقال: {إن الحكم إلا لله} (الأنعام:57) وقال تعـالى: {ألا له الخلق والأمر} (الأعراف:54).

وعندما وضع الله التشريع للبشر على ألسنة رسـله فقد أنـزل ذلك بعلمه وحكمته فهو العليم سـبحانه وتعـالى بما يصـلح النـاس وما يفسـدهم.. وبهـذه المقدمة نعلم أن الاعتراض على التشريع اعتراض على واضعه ومنزله سبحانه وتعالى، وهذا كفـر. ومن المعلوم قطعاً أن "لا إله إلا الله" تقتضي الشهادة لله سبحانه وتعالى بـالخلق والأمـر، فمن أقر بالخلق فقط وجرد الله سـبحانه وتعـالى من الأمر وقـال: للبشر أن يشـرعوا لأنفسهم ما يرونه صالحاً لحياتهم فقد كفر وأشرك. بل لا إله إلا الله معناه لا خـالق ولا معبود ولا إله يطاع أمره وينفذ حكمه إلا الله سـبحانه وتعـالى: ولا يفيد بـالطبع الإقـرار العام بحق الله عز وجل في التشريع، ونفي الحكمة عن جزئية واحدة من تشـريعه لأن الرب تبارك وتعـالى ليس محلاً للنقص والغفلة {وما كـان ربك نسـياً} (مـريم:64) ولا يتأتى من فعله شـيء خـارج عن الحكمة سـبحانه وتعـالى، فـالاعتراض على جزئية من جزئيات التشريع هو اعتراض على المشرع سبحانه وتعالى، وقد عرفنا حكم ذلك.

وقد حـدث في المجتمع المسـلم الأول في مكة شـيء من هـذا عنـدما نهى سـبحانه وتعالى عن أكل الميتة، وكانت العـرب تأكلها ألقى الشـيطان في نفـوس أتباعه شـبهة ليمزق بها المجتمع المسلم الناشيء فقـال لهم: سـلوا محمـداً عن الشـاة تصـبح ميتة من قتلها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله، فقـال المشـركون: ما تقتلونه أنتم بأيديكم تقولون عنه حلال، مذكى وتأكلونه، وما يقتله الله تقولون عنه ميت حـرام وتنهون عنه. أأنتم أفضل من الله؟ وانطلت هذه الشـبهة الصـغيرة على بعض النفـوس الضعيفة فأنزل الله بيان الأمر قال تعالى: {ولا تأكلوا مما لم يـذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشـياطين ليوحـون إلى أوليـائهم ليجـادلوكم وإن أطعتمـوهم إنكم لمشركون} (الأنعام:121).

فجعل سـبحانه وتعـالى طاعة المشـركين في جزئية من التشـريع شـركاً به سـبحانه وتعالى وذلك أنه اعـتراف بحق غـيره في التشـريع، واعـتراض على حكم الله سـبحانه وتعالى، وهذا أمر واضح ظاهر والحمد لله.

وقد فشى في أوساط المسلمين اليوم ترديد شبه أعـداء الإسـلام فنقلـوا واعتقـدوا ما بثوه من اعتراض على تشريع الله، ولا يكاد اليوم يخلو حكم شرعي من أحكام الإسلام إلا ونسمع الاعتراض عليه وأظهر ذلك تعدد الزوجات، والطلاق، والـرق، وحد السـرقة، وحكم القصـاص وحد الزنـا.. الخ وترديد من يشـهد أن لا إله إلا الله لمثل هـذه الاعتراضـات دون فهم ووعي لحكم ذلك أمر خطـير، واعتقـاد انتفـاء الحكمة من هـذه الشرائع والأحكام والحدود كفر بالله تبارك وتعالى.

وهذا الأمر أعني كفر المعترض على التشريع أشد وضوحاً فيمن ينكر الشـريعة جملـة. ويـرى أنها لا تسـاير نظـام حيـاة النـاس ولا تناسب رقيهم وتطـورهم المـادي، فهـؤلاء خارجون عن الإسلام سواء كانوا مسلمين قبلاً أو لم يسبق لهم إيمان وشهادة.

ولكن أرجو أن يعلم أن الاعـتراض قد يصـدر أحيانـاً من مسـلم يفاجئه الحكم ولا يـرى الحكمة منه مباشرة، ولا يخرج بهذا عن الإسلام إلا بعد أن يـبين له فلا يرجع إلى اللـه، ولا يفيء إلى أمره عز وجل.

ومن ذلك ما صـدر عن سـعد بن عبـادة رضي الله عنه عنـدما سـمع {والـذين يرمـون المحصنات ثم لم يـأتوا بأربعة شـهداء فاجلـدوهم ثمـانين جلـدة ولا تقبلـوا لهم شـهادة أبداً} (النور:4).

أهكـذا أنـزلت يا رسـول اللـه؟.. فقـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: [يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم؟..] فقالوا يا رسـول الله لا تلمه فإنه رجل غيـور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً وما طلق امـرأة قط فـاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته، فقال سعد: والله يا رسول الله إني لأعلم أنها لحق وأنها من الله، ولكـني قد تعجبت أني لو وجدت لكاعاً قد تفخدها رجل لم يكن لي أن أهيجه، ولا أحركه حـتى آتي بأربعة شـهداء، فوالله إني لا آتي بهم حـتى يقضي حاجتـه.. ثم أنـزل الله تبـارك وتعـالى بعد ذلك {والـذين يرمـون أزواجهم ولم يكن لهم شـهداء إلا أنفسـهم فشـهادة أحدهم أربع شهادات بالله..} (النور:6) (رواه أحمد).

والشاهد في سوقي لهـذا الحـديث أن أبين أنه يحصل للمسـلم أحيانـاً الاستفسـار في صورة الاعتراض على حكم الله، ولا يكون هذا مخرجاً له عن الإسلام.

وقد حدث مثل هذا لعمر بن الخطاب رضي الله تعـالى عنه عنـدما اعـترض على صـلح الحديبية الذي أبرمه الرسول صـلى الله عليه وسـلم مع المشـركين، ورأى عمر رضي الله تعالى عنه أن فيه انتقاصاً لحق المسلمين ورضاً بالدنية بالدين، ثم جاء الأمر على خلاف ظنه ورأيه فكان صلح الحديبية أعظم فتح في الإسلام. والشـاهد في هـذا أيضـاً أنه جابه الرسـول وأبا بكر بالإنكـار والاعـتراض ولم يكن ذلك خروجـاً منه عن دائـرة الإسلام رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

وخلاصة الأمر أن الاعتراض على الشريعة إذا أصبح عقيدة يعتقدها صـاحبها ويطعن بها في حكمة التشريع كان هذا مخرجاً له عن دائرة الإسلام، ولا يختلف هـذا الأمر -أعـني الاعـتراض على حكمة التشـريع- عن الاعـتراض على ما شـرع الله لنبيه ورضى لـه. فالاعتراض على ما أباح الله لرسوله صلى الله عليه وسلم من مباح كالزواج بأكثر من أربـع، وأخذ الخمس من المغنم وغـير ذلك مما اختص به صـلوات الله وسـلامه عليـه، تعتبر طعناً في الرسالة واتهاماً لاختيار الله للرسول صلى الله عليه وسلم.

واتهام اختيار الله كفر به سبحانه وتعالى، ومما يجرح القلب حزناً على مسـلمي اليـوم اعتراضهم على ما أباح الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، فهل هؤلاء مسلمون؟

وخلاصة هـذا الأمر أن موقف المسـلم من تشـريع الله عز وجل هو الرضى والتسـليم (سمعنا وأطعنا) هذا شعار المسلم دائماً ولا بأس أن يسأل عن الحكمة ويلتمسـها، لأن ظهور حكمة التشريع تزيد المؤمن إيماناً، وتقـوي صـلته بربه جل وعلا. وشـتان بين أن

يكون هناك تلمس لحكمة التشريع وبين أن يكون هناك اعـتراض على حكمة التشـريع، فدأب المسلم دائماً أن يتلمس حكمة الله في تشريعه للعباد، وقد نص سبحانه وتعالى عن الحكمة في معظم تشـريعاته. ودأب الكـافر الاعـتراض والاسـتهزاء بتشـريع الله تبارك وتعالى، قـال تعـالى: {ويل لكل أفـاك أثيم. يسـمع آيـات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشـره بعـذاب أليم. وإذا علم من آياتنا شـيئاً اتخـذها هـزواً أولئك لهم عذاب مهين} (الجاثية:7-9).

ثانياً: الحكم بغير ما أنزل الله عز وجل

ما دام أن الله سبحانه وتعالى قد أنزل تشـريعه لعبـاده ليلـتزموا بـه، وأنه لم يخـيرهم سبحانه وتعالى في الأخذ به أو تركه وإنما فرض هذا وألزمه، وأخبر سبحانه أن هـذا هو المقصـود من خلقهم حـتى لا يكـون خلقهم عبثـاً ولا هملاً، فـإن مقتضى الإيمـان به هو تنفيذ أمــره ونهيــه، فــإذا كــان معــنى لا إله إلا الله لا مطــاع إلا الله ولا مشرع للناس في شئون حياتهم إلا الله، أقول ما دام أن أمر الإيمـان كـذلك فـإن هـذا الأمر ينتقض بالتعالي عن أمره، والخروج عن حكمه، وإبطال شـريعته والحكم بغيرهـا، وقد نص الله على هذا الأمر في كتابه بنصوص صريحة واضحة، قـال تعـالى: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}.

وكان هذا تعقيباً على اليهود الذين أرادوا إبطال حكم الرجم الثابت في تـوراتهم وذلك بسؤال الرسول عن هذا الحكم لعله يفتي بخلافه أو بحكم أخف من الرجم فيكون لهم مندوحة عند الله في زعمهم - في التنصل من هــذا الحكم. قــال تعــالى: {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبــار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} (المائدة:44).

وها أنت ترى أن الله سبحانه وتعالى قد ختم الآية -وإن كـانت في شـأن اليهـود- بحكم عــام يشــمل كل أمة لها رســالة وتشــريع. {ومن لم يحكم بما أنــزل الله فأولئك هم الكافرون} (فمن) من صيغ العموم وهي تعم كل من اتصف بهذه الصفة.

وهناك سؤال معروف: هل يعد كـافراً كل من حكم في قضـية ما بحكم غـير حكم الله تبارك وتعالى؟

والجواب على ذلك أن هناك صوراً ثلاثاً لهذا الأمر:

الأولى: أن يحكم بغـير ما أنـزل معتقـداً أن ما حكم به هو الأفضـل، وهـذا كفر بإجمـاع المسلمين ولا مخالف لذلك.

الثانية: أن يحكم بغير ما أنزل الله معتقداً أن ما حكم به متساو مع حكم الله وأن هــذا مثل هذا. وهذا أيضاً كفر بالإجماع لأنه يساوي الله بخلقه. كما قـال تعـالى: {ثم الـذين كفروا بربهم يعدلون} (الأنعام:1).

الثالثة: أن يعتقد أن حكم الله هو الخير وهو الحق، وكل حكم يخالفه مرجوح باطل، ولكنه يحكم به بدافع من شهوة، أو رشوة، أو منصب أو غير ذلك. وهذا الذي قال فيه ابن عباس رضي الله عنهما. (كفر دون كفر) أي كفره لا يخرجه من ملة الإسلام ومن جماعة المسلمين.

وبهذا يكون الحاكم واضحاً في شأن الذين يجعلون شريعة الله على قدم المساواة مع شريعة أنفسهم أو من يتبعونهم من الكفار وفي شأن الذين يصفون حكم الله بالرجعية والجمود والتخلف عن مسايرة الزمن.

وثمة نقطة هامة في هذا الصدد أحب بيانها حتى لا تلتبس الأمور وهي أن اجتهاد الأئمة والفقهاء في عصر ما لا يعتبر حكماً لله تبارك وتعالى وإنما حكم الله هو نص كتابه، وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم فقط، وما سوى ذلك معرض للصواب والخطأ لأنه اجتهاد المجتهد يصيب ويخطئ وأما حكم الله فلا يخطئ أبداً سبحانه وتعالى.

فلا يعد مخالفاً لحكم الله تبارك وتعالى وخارجاً عنه من خالف شيئاً من أقوال الأئمة والفقهاء. وإنما يعتبر كذلك من خالف النصوص الصريحة الواضحة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً: الاستهزاء بالمسلم لإسلامه، ومعاداته لدينه

قد يغفل كثير من الناس عن هذا الحكم فيعتقدون -كما بينت سابقاً- أن الاستهزاء بشعيرة من شعائر الإسلام كفر. والاستهزاء بالمسلم ليس كفراً، وهذا أمر يحتاج إلى بيان وتفصيل.

1- الاستهزاء بالمسلم قد يكون لصفة خلقية (بفتح الخاء وإسكان اللام) أو لخلق يتصف به،أو لتصرف أو سلوك ما، وهذه معصية ليست كفراً. قال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابذوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون} (الحجر:11).

فجعل الله تبارك وتعالى هذه الأفعال فسقاً {بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان} أي بئس اسما يطلق على الرجل أن يسمى فاسقاً بعد أن كان مؤمناً.

ولكن ليكن معلوماً أن الاستهزاء بالصفات الخلقية والتي لا تدخل للإنسان فيها قد يجر إلى الكفر لأن اختلاف الألوان والأشكال والألسنة من مراد الله تبارك وتعالى بل ومن آياته. قال تعالى: {ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم. إن في ذلك لآيات للعالمين} (الروم:22).

2- وقد يكون الاستهزاء بالمسلم من أجل إسلامه فيستهزأ به لتمسكه بشعيرة من شعائر الإسلام. أو لعمله عملاً من أعمال الإيمان. وهنا ينصرف الاستهزاء إلى الدين ويكون هذا العمل كفراً. وقد وصف الله الكفار إن هذا هو دينهم مع المؤمنين قال تعالى: { إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون *وإذا مروا بهم يتغامزون

*وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين *وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون *وما أرسلوا عليهم حافظين} (المطففين:29-33).

فهؤلاء المجرمون يضحكون من المؤمنين ويستهزئون بهم ويتغـامزون إذا مــروا عليهم ومع ذلك يرجع كل مجــــرم إلى منزله فرحـــاً فخــــوراً بنفسه وكأنه لم يعمل جريمة يحاسب عليها، ثم إنهم يصفون المؤمنين بالضلال، وما أشبه هذا بقــول مجـرمي زماننا عن المؤمنين "انهم معقدون، رجعيـون، نسـوا حيـاتهم، ضـيعوا شـبابهم، لا يسـتمتعون بمتع الحياة، ولذائذها المبذولة"..

قــال تعــالى: {وما أرســلوا عليهم حــافظين} أي ما جعلنا هــؤلاء المجــرمين محصــين لأعمال المؤمنين ولا قائمين عليهم. ثم تأتي الصورة الثانية. صورة الآخــرة حيث يكــون أهل الإيمان في العلو والرفعة في الجنات، وأهل الإجرام في النــار والجحيم. {فــاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون *على الأرائك ينظــرون} (المطففين:34-35).. ومثل هذه الآيات قوله تعالى: {زين للذين كفروا الحياة الـدنيا *ويسـخرون من الـذين آمنــوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة *والله يرزق من يشاء بغير حساب} (البقرة:212).

وخلاصة هــذا الأمر أن الاســتهزاء بالمســلم لإســلامه كفر لأنه في حقيقته اســتهزاء بالإسلام، والاستهزاء بالإسلام هو طعن في واضعه ومنزله سبحانه وتعالى ومعلوم ماذا يعـني هـذا. وبهـذه المنزلة معـاداة المـؤمن لتدينـه، فالعـداوة مع مـؤمن لشـأن ما من شؤون الحيـاة وإعراضـها إن كـانت بحق فليس في هـذا شـيء وإن كـانت بباطل فهي معصية. وأما عدوانه من أجل تدينه وتمسكه بالإســلام فهي كفر لأنه محاربة لـدين الله ومحادة له. وصد عن سبيل الله فكثـير من النـاس -ولا حـول ولا قـوة إلا باللـه- يكـون الشخص محبباً إليهم محبوباً لديهم إذا كان موافقاً لأهوائهم تباعــاً لشـهواتهم. وما كـاد يهتدي ويلتزم طريق الله تبـارك وتعـالى حـتى يلاقي العـداوة والبغضـاء ممن كـانوا له أصدقاء وهذا أمر خطير جداً نعوذ بالله منه. فإذا بلغت العـداوة مبلغ فتنة المسـلم عن دينــه، وصــده عن ســبيل ربه فقد بلغت المنزلة منزلة الكفــر، قــال تعــالى في وصف الكافرين: {الر. كتاب أنزلناه إليك لتخـرج النـاس من الظلمـات إلى النـور بـإذن ربهم إلى صــــراط العزيز الحميد *الله الــــذي له ما في الســــماوات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد *الذين يستحبون الحيـاة الـدنيا على الآخــرة *ويصــدون عن سبيل الله *ويبغونها عوجاً *أولئك في ضلال بعيد} (إبراهيم:1-3).

فقد وصف الله الكفار هنا بوصفين: الأول حبهم للدنيا عن الآخرة، والثـاني صـدهم عن سبيل الله ورغبتهم أن يظل طريقه سبحانه وتعالى معوجاً للسالكين فيه حتى ينصرف الناس عنه، وينفض الناس منه. وقد توعدهم الله ســبحانه وتعـالى بالويل لـذلك فكيف بالذين يمارسون هذا الصد عن سبيل الله بتجنيد أجهزة الدولة ومقومـات الأمة لـذلك، وقد رأيت في صحيفة تصدر في بلاد عربية وإسـلامية هـذا الخـبر (صـدر في اسـتانبول قرار يقضي بأن لا تسير المرأة محجبة في شارع عام، أسوة بعربات الكـارو والحمـير) انتهى. أهناك صد عن دين الله أبلغ من هذا؟ وانظر إلى فعل الصحافي الخبيث (أســوة بعربات الكارو والحمير) فليس بالطبع في القرار الصادر هذه العبارة وإن كـان القــرار في ذاته كفراً، ولكن الصـحيفة ترددها لتشـفي الصـدور المقرحة أن ينشر دين الله عز وجل وتصد أي امرأة مسلمة أن تتزيا بزي الإسلام، فالصد عن سبيل الله عز وجل بأي صورة من الصور، كفر بالله تبارك وتعالى لأن المؤمن يفــرح إذا انتشر دين الله وعلت كلمته والكافر ليس كذلك، ومن أبلغ الأمـور صـداً عن سـبيل الله الاسـتهزاء بالمسـلم لإسلامه، وذلك أن المبتدي في أمر الإيمـان قد ينصـرف عنه إذا قابل اسـتهزاء النـاس

وسـخريتهم وأبلغ من ذلك فتنه وتعذيبه لـيرجع عن عقيدتـه، فويل للمجـرمين الـذين يعذبون المسلمين ويفتنونهم عن دينهم ويصـدونهم عن سـبيل الله ومن زعم أن أولئك ليسـوا بكفـار فقد جهل وكـابر وعاند فما الكفر إذن، إن لم تكن فتنة المـؤمن عن دينه كفراً؟..

رابعاً: موالاة أعداء الله

العقيدة الواحدة والتشريع الواحد تفرضان على المؤمنين الالتزام بوحدة جامعة وأخـوة لازمة لا يكمل إيمان فـرد فيها إلا بـأن يحب لأخيه ما يحب لنفسـه، فالعقيـدة الواحـدة إيمـان واحد بالله سـبحانه وتعـالى وملائكته وكتبه ورسـله واليـوم الآخـر، والشـريعة الواحـدة تفـرض الوحـدة والمحبـة، وتنفي الفرقة والخلاف في كل صـورة من صـورها فمن الوقـــوف في الصـــلاة صـــفاً واحـــداً بين يـــدي الله إلى إزالة الأذى عن طريق المسلمين نجد الرغبة في الالتحام والقرب والأخوة، فأدنى عمل في الإسـلام وهو رفع الأذى عن طريق المسـلمين يشـعر بـالحب والقـرب من المسـلم لإخوانه ومجتمعـه، وهكذا الزكاة والصيام والحج يكاد أن يكـون المقصد الأول من كل ذلك بعد عبـادة الله تبارك وتعالى تحبيب المسلم من أخيه المسلم، وربط المسلمين بأخوة جامعة، ووحدة عجيبة، هذه الوحـدة والأخـوة يصـبح السـعي في تفريقها وتمزيقها جريمة من الجـرائم تصل إلى الكفر في بعض صورها وتكون معصية وإثماً وظلماً في صـور أخـرى مخففة لا تتصل بالعقيـدة أعـني اسـتحلال الفرقة والخلاف، فـإن اسـتحلال تفريق المسـلمين وإذهاب وحدتهم كفر مخرج من الملة بلا خلاف.

وإذا فهمت هـذه المقدمة جيـداً يصـبح الوصـول إلى الحكم الآتي سـهلاً ميسـوراً، فما المقصود بولاية المسلم لأعداء الله.

- الولاية في لغة العـرب تطلق على النصر والتأييد والإعانة فلان ولي لفلان ومـوال له أي مؤيد وناصر.

والله ولي الذين آمنوا: ناصرهم ومؤيدهم ومعينهم.. أولياء الله الـذين يقومـون بنصـره سبحانه وتعالى كما قال عز وجل: {إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم} (محمـد: 7) وعلى هذا المعنى يكون اتخاذ أعـداء الله أوليـاء، يعـني اتخـاذهم أنصـاراً ومؤيـدين. تنصرونهم وينصرونكم، وتؤيدونهم ويؤيدونكم، والأصل في هذا قول الله تبارك وتعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضـهم أوليـاء بعض ومن يتـولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين} (المائدة:51).

فهـذه الآية نص صـريح في النهي عن اتخـاذ اليهـود والنصـارى أوليـاء والحكم على من فعل ذلك من المسلمين بأنه منهم أي يهـودي أو نصـراني، وسـمى الله من يفعل ذلك ظالماً لأنه يضع الولاية في غـير محلهـا، فبـدلاً من أن يـوالي الله ورسـوله والمؤمـنين يوالي أعداء الله من اليهود والنصـارى ومن على شـاكلتهم، ولكن ثمة تفصـيل في أمر الولاية وهذا التفصيل ينقسم إلى قسمين:

(ا) القسم الأول: بحسب حالة اليهود والنصارى ووضعهم.

(ب) القسم الثاني: بحسب نوع هذه الولاية والتأييد.

فأما القسم الأول: فإن من اليهود والنصارى وغيرهم محاربين معادين لله ورسوله وللمؤمنين وهؤلاء لا علاقة مع أمة الإسلام بهم إلا العداوة والحرب وقد نزلت الآيات في شأن جماعة من هذا القبيل وهم حلفاء عبدالله بن أبي بن سلول من اليهود الذين أراد الرسول تأديبهم لخيانتهم فاستشفع ابن سلول فيهم ونهاه الرسول عن ذلك ونزلت الآية السابقة في هذا الشأن فلا يجوز بحال موالاة المحاربين لأمة الإسلام سواء كانت هذه الحرب مباشرة أي بمساعدتهم لأعداء الإسلام، وجميع أنواع الولاية من حب ونصر وتأييد وإعانة مرفوضة مع هؤلاء، ومن فعل فقد انتقل من معسكر المسلمين إلى معسكر الكافرين.

وأما غير المحاربين منهم وهم المحايدون المستأمنون في بلاد الإسلام أو القاطنون في غيرها الذين لا يحاربون المسلمين بأنفسهم ولا بمساعدتهم لغيرهم فهؤلاء يجوز أن يكون بين المسلمين وبينهم نوع من ولاية نص الله تبارك وتعالى عليها بقوله:

{لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين} (الممتحنة:8). وهذا البر المسموح به والإقساط غير الولاية التي نهانا الله تبارك وتعالى عنها وأخبر أنها خروج من الإسلام إلى اليهودية أو النصرانية، وبهذا يظهر لنا معنى الولاية المسموح بها -إن صح هذا التعبير- من الولاية التي نهانا الله تبارك وتعالى عنها.

وأكبر الإثم وأعظمه في هذا الأمر هو ولاية المسلم للكافر على أخيه المسلم، أعني أن يعاضد المسلم الكافر ضد إخوانه المسلمين هذه ولاية الكفر المخرجة من الإسلام والعياذ بالله، لأنها بمثابة الحرب للإسلام والمسلمين ودين الله عز وجل. وكم يمارس مثل هذا ضعاف النفوس من الحكام رغبة في أن يحفظ عليهم أعداء الإسلام مناصبهم وكراسيهم. إلا أنها مناصب زائلة. وأنها لحسرة وندامة عليهم يوم القيامة!

وخلاصة هذا الأمر هو أن المسلمين أمة واحدة يكون ولاء كل مسلم لها، وقلبه معها ويده ولسانه وسلاحه معها، ولا يجوز أن يصرف شيء من ذلك لأعداء الإسلام، فمن فعل غير ذلك فقد انتقل من معسكر الإسلام إلى معسكر الكفر شاء أم أبى. انظر كيف يقسم الله الناس إلى معسكرين لا ثالث لهما:

قال تعالى: {الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم *والذين آمنوا وعملوا الصالحات *وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم *ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم، كذلك يضرب الله للناس أمثالهم} (محمد:1-3).

ثم يعقب بعد هذا التقسيم للناس بقوله تعالى: {فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب *حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق *فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها} الآية (محمد :4).

إن هذا الانفصال بين أمة الإسلام وأمة الكفر الداعية إلى الكفر المحاربة للمسلمين واجب ولازم لاستمرار هذه الدعوة وبقاء هذه الرسالة فإن لم يكن في الأوطان والدول فليكن أولاً في العقيدة والشعور ولا بد، وبغير هذا لا يكون هناك إسلام.

خامساً: الرضا بفشو المنكر وانتشاره

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: [ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل] (مسلم).

هذا الحديث نص على أن من مستلزمات الإيمان إنكار بإحدى وسائل الإنكار السالفة وهي اليد ثم اللسان ثم القلب، وإنكار المنكر باليد معناه إزالته بالقوة، وأما باللسان فمعروف، وأما إنكار المنكر بالقلب فهو كراهيته وبغضه وبغض فاعليه وكراهيتهم، وهذه الصورة الأخيرة التي هي أدنى صور الإنكار لا تعرض المؤمن للأذى وهي أقل مستويات الإيمان. ومفهوم هذا الحديث أن الذي لا يكره المنكر ولا يبغض أهله فليس بمؤمن لقول الرسول صلى الله عليه وسلم [وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل].

وهذا نص صريح واضح ومعلوم أنه لا يخرج من النار من في قلبه إيمان أقل من هذا، لأنه لا أقل من هذا. وعلى هذا يكون الراضون بفشو المنكر وانتشاره كفاراً فاقدي الإيمان وإن زعموا أنهم من المسلمين. فكيف بمن يبارك المنكر ويحبه؟!

فكم ممن ينسب إلى الإسلام اليوم يحب ويرضى ويبارك أن تتعرى النساء في الأسواق والمجتمعات العامة وأن يتم اختلاط الرجال بالنساء على هذه الصورة ليمتع نفسه بالمتاع الحرام. وكم منهم من يسب المجتمعات الإسلامية المحافظة ويستهزئ بها وبأهلها ويتهمهم بالرجعية والتأخر وشتى نعوت النقص والتحقير.. وكم من هؤلاء من يفرق إذا نودي في الناس بوجوب تحكيم كتاب الله تبارك وتعالى وغاية فرقه وخوفه أن تختفي هذه الشهوات المحرمة وتغلق الخمارات والبارات وتختفي اللذائذ الرخيصة!! وهؤلاء هم الذين شرحوا بالكفر صدراً، وضاقت صدورهم أن يذعنوا للإسلام ديناً ودولة، ومجتمعاً نظيفاً طاهراً والحكم على هؤلاء بأنهم مسلمون حكم ظالم وجاهل يصدر ممن لم يعرف ما الإسلام وما رسالته وما غايته في الحياة والناس.

فليراجع كل مؤمن إيمانه ولينظر هل اختار حقاً دين الله منهج حياة وغاية وجود، فيضع نفسه في صف المسلمين محباً لعقيدتهم راضياً بشريعتهم كارهاً للكفر بكل صوره ومظاهره وللمنكر بكل أشكاله. وهذا هو الإيمان.

وفي معنى حديث هذا الباب الحديث الآخر عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان] (البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم). ومعنى هذا أن إنكار المنكر بالقلب أضعف الإيمان أنه ليس هناك إيمان وراء هذا.

وأما السبب في ذلك أن الإيمان يستلزم حب شريعة الله تبارك وتعالى، والرغبة في تحكيمها، وأن تكون كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، فإذا لم يتحرك

القلب تجاه المعصية فيبغضها ويبغض أهلها فمعنى هذا أنه رضي بالمنكر، والرضا بالمنكر إقرار له ومعنى هذا الانسلاخ من دين الله تبارك وتعالى ومضادة الإيمان به. فإذا انضاف إلى الإقرار والرضا الحب والمتابعة، والإشادة والمباركة فقد اجتمعت جريمتان: كفر وصد عن سبيل الله تبارك وتعالى لأن محبة المنكر أن يفشو والرغبة في أن يسود الباطل، إنما هو الرغبة في أن تكون كلمة الله دون كلمة الكفر. وهذا نقيض الإيمان الذي يستلزم العمل لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

وهذا الأمر يحتاج من كل مسلم إلى مراعاة وعناية فائقة ليخلص قلبه من كل حب لغير شريعة الله، ومن كل هوى يناقض دينه سبحانه وتعالى والله المستعان.

الفصل الثالث

الكفر ما هو وما حقيقته؟

الفرق بين الكفر والكافر:

في الصفحات السابقة -عرفنا بحول الله- حقيقة الإيمان ولازمه وهو العمل وما ينقض هذا الإيمان ويذهب به، وقد تردد في هذه الرسالة اسم الكفر كثيراً ولا شك أننا نعلم أن الكفر الآن هو الخروج عن الإيمان والانسلاخ منه، وهذا هو المعنى الحقيقي لمعنى الكفر.

والكفر لغة معناه الستر والتغطية فالعرب تسمي الليل كافراً لأنه يستر الأشياء ويخفيها وتسمي الفلاح كافراً لأنه يغطي الحب في التراب، ومن هذا المعنى قوله تعالى: {اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته} (الحديد:20).

ومعنى الكفار هنا الزراع، والسبب في تسمية الخارج عن الإيمان كافراً أنه يرى أدلة التوحيد، وما يدعوه إلى الإيمان بربه جل وعلا ثم يصر مستكبراً على باطله وكفره. انظر كلام الله عن إمام الكافرين في الأرض فرعون الذي ترك الإيمان بالله جحوداً ونكراناً لا جهلاً، قال تعالى على لسان موسى لفرعون: {قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً} (الإسراء: 102).

أي لقد علمت يا فرعون أن الله تبارك وتعالى خالق السماوات والأرض هو الذي أنزل ما شاهدته من الآيات كالعصا واليد لتبصر أنت وقومك، وتعلموا أنني رسول من الله عز وجل وكذلك أخبر سبحانه وتعالى عن قوم فرعون أنهم علموا الحق ولكنهم كذبوه وزاغوا عنه، قال تعالى: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين} (النمل:14). أي تيقنت أنفسهم أن الآيات التي جاء بها موسى هي آيات الله حقاً وصدقاً، ولكنهم جحدوا أي أنكروا وكابروا وردوا الحق عن علم وبصيرة، وكذلك أخبر سبحانه وتعالى عن كفار العرب الذين كذبوا رسول الله صلى الله عليه

وسـلم حيث قـال عنهم: {قد نعلم إنه ليحزنك الـذي يقولـون فـإنهم لا يكـذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} (الأنعام:33).

ومعنى هـذا كله أن الكفر شـرعاً هو رد الحق بعد معرفتـه، ومعـنى هـذا أن الـذي يـرد الحق جهلاً أو يفعل شيئاً من الكفر جـاهلاً ظانـاً أنه من الإسـلام وأنه فعل ما لا يضـاد الإيمـان، فليس بكـافر حـتى تقـوم الحجة عليه ويعلم الحق فـيرده على النحو المـبين سابقاً في تعريف الإيمان ومستلزماته ونواقضه، وكذلك لا يكون كافراً من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم يفعل مناقضـاً للإيمـان جـاهلاً به غـير عـالم أنه مخرج له من الإيمان فإن علم ورد وكابر وجحد فقد كفر والعياذ بالله.

وقد فعل بعض الصـحابة شـيئاً من هـذه المناقضـات للإيمـان عن جهل بحكمها فـأنكر عليهم الرسول إنكاراً شديداً ولم يخرجهم من الإيمان. فعن المقـداد بن الأسـود رضي الله عنه أنه قال قلت يا رسول الله إن لقيت رجلاً من الكفار فقاتلني، فضـرب إحـدى يدي بالسيف فقطعها ثم لاذ مني بشجرة، فقـال: أسـلمت لله أفأقتله يا رسـول اللـه؟ بعد أن قالها، قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم: [لا تقتلـه] قـال فقلت يا رسـول الله إنه قطع إحدى يدي. ثم قـال ذلك بعد أن قطعها أفأقتلـه، قـال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم: [لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتلــه، وأنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قالها] (رواه البخـاري ومسـلم وأبو داود وأحمـد)، والمعـنى أنه بـذلك تقتل مؤمنـاً وتصـبح كـافراً ولهـذا لما قتل أسـامة بن زيد رجلاً قـال لا إله إلا الله في غزوة من الغزوات عنفه الرسول صلى الله عليه وسلم تعنيفاً شديداً وظل يــردد عليه قوله [قال لا إله إلا الله وقتلته؟..] حتى أن أسامة ليقـول تمـنيت أني أسـلمت يومئـذ، أي لم أكن أسلمت قبل (البخاري ومسلم وأحمد).

والسبب في ذلك أن أسامة كان جـاهلاً بهـذا الحكم والقاعـدة الشـرعية المعروفة هي أن المؤاخـذة لا تكـون إلا بعد العلم، قـال تعـالى: {وما كـان الله ليضل قومـاً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم} (التوبة:115). أي أن المسلم لا يعتبر ضالاً إلا إذا عرف الحق ثم زاغ منه وكابر، وهذه الآية نزلت تعقيبـاً على عتـاب الله لرسوله والمؤمنين الذين استغفروا الله لأقربائهم الذين مـاتوا على الشـرك، قـال تعالى: {وما كان للنبي والذين آمنـوا أن يسـتغفروا للمشـركين، ولو كـانوا أولي قـربى من بعد ما تــبين لهم أنهم أصـحاب الجحيم *وما كـان اسـتغفار إبـراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، إن إبـراهيم لأواه حليم *وما كـان الله ليضل قومـاً بعد إذا هـداهم حـتى يـبين لهم ما يتقـون *إن الله بكل شـيء عليم} (التوبة:113-115).

فقرر الله سبحانه وتعالى في ختام هذا الحكم هذه القاعدة الشرعية العظيمة وهي أن المؤاخذة دائماً بعد العلم. وهذا من فضل الله ورحمته فله الحمد ويشبه مسألة أسامة ما جـاء على بعض ألسـنة المسـلمين مما يعتـبر شـركاً، ومعلـوم أن الشـرك منـاقض للإيمان كما قال أحدهم للرسـول صـلى الله عليه وسـلم: ما شـاء الله وشـئت فقـال: [أجعلتني لله نداً قال ما شـاء الله وحـده] (أحمـد). فـرده إلى الحكم وعلمه إيـاه. وما قاله بعض مسـلمة الفتح عنـدما خـرج بهم الرسـول إلى هـوازن ومـروا على شـجرة للمشركين كانوا ينوطون (يعلقون) بها سيوفهم ليلة المعركة زاعمين أن من فعل ذلك لاقى النصر في معركته. يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنـواط فقـال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [الله أكبر إنها السنن قلتم والذي نفس محمد بيـده، كما قال بنو إسرائيل لموسى: {اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة}] (أحمد والترمذي)، وذلك

أن النصر من الله فكيف يرتجى النصر بتعليق السلاح في شجرة تهب البركة والنصـر! إنه الشرك والشاهد أن الرسول لم يقل لهم كفـرتم وأبطلتم إسـلامكم السـابق ولا بد لكم من إسلام جديد، وإنما بين لهم أن هذا العمل شرك وذلك ليحذروا هذا مستقبلاً.

وهـذه الأدلة وغيرها كثـير نسـتفيد منها أنه يجب أن نفـرق دائمـاً بين الكفر والكـافر، فالكفر أعمال وأقـوال ومناقضـات للإيمـان قد يصـدر بعضـها جهلاً من المسـلمين، فلا يجوز والحالة هذه والحكم عليهم بالكفر، بل يجب تعليمهم أن هذا العمل كفر أو شرك أو مناقض للإيمان، وذلك ليحذروه مستقبلاً، فمن آمن وأذعن فقد تمسك بإيمانـه، ومن كابر فقد انتقل من الإيمان إلى الكفر والعياذ باللـه، وأما الكـافر فهو الـذي ظهـرت له أدلة الإيمان فجحدها وأنكرها، وعلم الحق فزاغ عنه ورده والعياذ بالله .

الفصل الرابع

العرف الكاذب

أخي المسلم، أرجو أن تكون قد جمعت في قلبك الآن الصورة الحقيقية الـتي يجب أن يكون المسـلم عليهـا، وعـرفت الصـورة الحقيقية الـتي يتصف بها الكـافر حـتى تصـدر أحكامك بعد على نور وبصيرة.

ولتعلم أخي المسلم أن السبب في جهل المسـلمين هـذه الحقـائق الأولية في عقيـدة الإسلام هو من جراء العرف الكاذب. فما هذا العرف؟ ولماذا كان كاذباً؟

العرف هو ما يقبله الناس بوجه عام، ويتعارفون عليه، وهو خاضع دائمـاً لما يسـود في مجتمعاتنا الإسلامية عقيدة عامة أن من قال لا إله إلا الله كان مسـلماً، وهـذه العقيـدة في أساسها سليمة صحيحة. ولكن انظر ما طرأ عليها من التغيير والتبديل:

(أ) لقد كانت هذه العقيدة تعني الإيمان بالإله الواحد خالق الكون ومدبر شؤونه والـذي له الطاعة المطلقة والخضـوع الكامل والخـروج من معسـكر الشـرك إلى معسـكر الإيمان عقيدة وتشريعاً وحباً وعاطفة فيكـون ولاء المسـلم لدينه وعقيدته وأهل دينـه. ولا شك أن المسلمين كانوا يتفاوتون في مقدار تطبيق التزامات هـذه العقيـدة، فكـان بعضـهم يتهـاون في القطاعـات أو يقـارف المنكـرات والمعاصي ولكنه محافظ على الأصل السابق.

(ب) ابتـدأت العقيـدة الناصـعة الواضـحة تضـعف في النفـوس، وينشأ في المسـلمين أجيال يرثون الإسلام وراثة فيحملون أسـماء إسـلامية ويتكلمـون لغة القـرآن العربيـة، وينسبون إلى اسم الإسلام ويضعف لـديهم مفهـوم (لا إله إلا اللـه) فلا يـدركون منه إلا أنه (لا خـالق إلا اللــه) أو (لا موجــود إلا اللــه) وابتــدأ يظهر فيهم -بفعل المــؤثرات المختلفـة- الشـرك بكل صـوره ومظـاهره من عبـادة القبـور ودعائها بل والأشـجار والأحجار.. ثم جاء فصل تشـريع الإسـلام عن حيـاتهم وإقـرار شـريعة الكفر في بلادهم فنشأ فيهم من تحمس لذلك، ووصف شريعة الإسلام بـالجمود والرجعية وأنها تسـتحيل على التطبيق في مجتمع الذرة والصاروخ، والعجب بعد.. أنهم يقولون لا إله إلا الله بل ويمارسون الصلاة والزكاة والصوم والحج.

ومنهم من يخــوض مســتهزئاً بالمســلمين وخاصة أهل الــدعوة منهم. بل ومنهم من أضحى شيوعياً، أو ملحداً يجاهد لإحلال شـريعة الكفر محل شـريعة اللـه. ثم يظن بعد أنه ما زال من أهل لا إله إلا الله (ومع ذلك فـأرجو أن نفـرق بين من عـرف الحق من هؤلاء واطلع على رسالة الإسلام بحقيقتها. ومن بلغه الـدين عن طريق بعض المشـايخ الجهال الذين يفتون في كل شيء بلا علم. ويحاربون القوة المادية والوسائل الصـالحة لأنها جاءت من طريق الكفار في زعمهم. فهؤلاء صادون عن سـبيل اللـه، ومن عـرف الإسلام عن طريقهم معذور برده فتاواهم الباطلة، وقصورهم وعنـادهم، ولا يعتـبر هـذا رداً للإسلام الذي نزل من عند الله سبحانه وتعالى).

(ج) هذا العرف الكاذب أعني إطلاق اسم المسلم على من ينسب إلى الإسـلام فقـط، أو يحمل اسماً إسلامياً كان السبب الأول في تمـييع قضـية الإسـلام. وتشـويه الصـورة الحقيقية العلمية للمسلم.

(د) ثم ابتدأت أفكار الشرك اللئيمة الخبيثة تلبس كفرها لباس الإسلام حتى يروج على من يعلل نفسه بأنه ما زال مســلماً، ومن يمسك لليــوم بولائه العــاطفي للإســلام فنشـرت شـريعة الكفر ونظامه باسم الإسـلام، وهكـذا رأى النـاس أن الإسـلام ثـوب مشوه مرقع سخيف فهو مزيج من الشيوعية، والاشتراكية والديمقراطية والرأســمالية فضاعت بذلك صورة الإسلام المستقلة الفريـدة. وضـاعت ميزته الأولى أنه نظـام الله وشريعته وليس للبشر فيه إلا الفهم والتطبيق.

(هـ) إن الذين يعز عليهم أن يوزن الناس بمـيزان الإسـلام، وأن يقيمـوا حسب موازينه وقيمه خوفاً من أن يكون كثـير من النـاس لا ينطبق عليهم الوصف الحقيقي لمســمى المسلم. ويلجؤون إلى هذا العرف الكـاذب ليؤيـدوا به حكمهم ودعـوتهم يخطئـون في حق أنفسـهم، ويرتكبـون الإثم في حق الإسـلام الـذي يشـرفهم الانتسـاب إليـه. وخـير للنـــاس أن يعرفــوا الحق فيتبعونه وإن جحد منهم من جحد من أن يقــروا على باطل ويتركوا في عماية.

(و) لقد كان هذا العـرف الكـاذب أكـبر صـاد لليهـود في عهد الرسـول صـلى الله عليه وسـلم عن قبـول الهدايـة، والانطـواء تحت لـواء الإسـلام، فلقد جـاؤوا الرسـول وهم يعتقـدون أنهم أهل دين الله وأنهم شـعب الله الـذي اختـاره على العـالمين، وأن الجنة خالصة لهم، وكل ذلك حق لو تمسكوا بالدين الصحيح، واتبعوا ما ألــزمهم به دينهم من اتباع محمد صـلى الله عليه وسـلم وتركـوا ما أحـدثوه من الفسـاد والتغيـير والتحريف والتبديل في كتاب ربهم وشريعتهم، ولكنهم تمسـكوا بالباطل وردوا الحق فكفـروا ولم تفدهم أمانيهم في الجنة والمغفرة شيئاً. وما أشـبه الليلة بالبارحة ها هي معـاني لا إله إلا الله تتبـدل في حيـاة المسـلمين فيشـركون بالله في العبـادة والتشـريع والطاعـة، ويستهزئون برسالة الإسلام ويقتلون الـدعاة إلى اللـه، ويفتنـونهم عن دينهم -كما فعل اليهود بأنبيائهم ودعاتهم- ويهللون للكفر أياً كان، ومع ذلك يفزعـون ويجزعـون إذا قيل لهم أن ما تمارسونه كفر مناقض للإيمـان. وأن لا إله إلا الله الـتي تقـرون بها تلـزمكم بغير هذا تماماً وتحتم عليكم غير هذا.

(ز) واجب الدعاة اليوم الجهاد لإقرار المعنى الصحيح لهـذه الكلمة الصـحيحة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) حيث تعني الإيمـان بالله والخضـوع لأمـره، والإقـرار بشـريعته، والكفر بكل ما يعبد من دون الله سواء كان صنماً يدعى أو حاكماً يشرع للناس نظاماً من عند نفسه لم يأذن به الله، والولاء للإسلام والمسلمين قــولاً وعملاً والبغض للكفر

والكافرين قلباً ولساناً ويداً. وإنكار القلب أضعف الإيمـان وليس وراء ذلك من الإيمـان حبة خردل.

(ح) تغيير هذا العرف الكاذب واجب اليوم ليس بمجابهة عوام المسلمين بالكفر، ولكن بعودتهم إلى المعنى الحقيقي لـ (لا إله إلا الله). وقد عرفنا في الفصل السابق الفــرق بين الكفر والكافر فليس كافراً إلا من يعلم الحق فيرده، ويماري بالباطل.

(ط) وهنا سنصل إلى هـذا السـؤال اللازم، وعلى أي صـورة منذ البـدء سـنعامل عامة المسلمين؟

أنعاملهم على أن حقيقة الإيمان قد ضـاعت وجهلت وأصـبح المجتمع خالصـاً، ولا نحكم بالإيمان إلا لمن عرفنا حقيقة دينه وولائه؟.. أم سنعاملهم على أنهم مسلمون قد ورثوا الإسلام وتشرب كثيراً منهم عقائد الكفر جهلاً وغفلة؟

والحق الذي لا مراء فيه أنه يجب الحكم على عوام الناس بأنهم مسلمون، ما لم يظهر من أحدهم ناقض من نواقض الإيمان عالماً بـه، مكـابراً فيـه. وإن الـواجب أن يعـاملوا معاملة المسلمين المؤمنين، وأن يعلموا حقيقة الإيمـان، وحـدود الإسـلام. وأن لا ينقل فرد منهم عن هذه الحقيقة إلا بفعل مناقض للإيمان بعد قيام الحجة عليه.

وبراهين هذا الحكم كثيرة منها:

1- أن هذه الأمة قد ورثت عقيدة التوحيد والإيمان وغرست فيها، وأن هـذه التحـولات، وشـيوع التناقضـات مع قضـايا الإيمـان إنما هو بفعل الجهل والغفلـة، وبفعل شـياطين الإنس والجن الـذين لبسـوا على النـاس دينهم، وأوهمـوهم أن الإسـلام لا ينـاقض ما غرسوه من أفكار وعقائد كافرة، ولـذلك اعتقد كثـير منهم بالباطل جهلاً بحقيقة دينـه، ويوم يعلم هؤلاء الناس حدود دينهم على الحقيقة، ولوازم عقيـدتهم وإيمـانهم. فلا شك أن الكثير منهم سيسارع إلى تصحيح معتقده واستغفار ربه.

2- إن الحجة -وأعني بها تمييز الحق من الباطل- في كثير من مسائل العقيــدة لم تقم قيامـاً يتحـدد معه أن يهلك من هلك عن بينـة، ويحـيى من حي عن بينـة. كيف وطائفة كبـيرة من العلمـاء المضـللين هم وراء نشر الباطـل، وتزييف رسـالة الإسـلام، وتمـييع قضـية الإيمــان، وإقــرار الكفر في بلاد الإســلام، وإظهــار أهل الحق والإيمــان بمظهر الخارج عن تعاليم الإيمان والإسلام.

3- أنه لم يقم بعد غلبة أنظمة الكفر على نظــام الإســلام تميــيز يجعل أهل التوحيد والإيمــان في صف واحــد. بل اختلط أمر النـاس اختلاطـاً عظيمـاً فكيف يمكن الحكم على الناس وهم بهذه الصورة.

4- إن الأصل فيمن ينسب إلى الإسـلام أنه مسـلم، ولا يخـالف في هـذا الأصل عاقـل، ولذلك يحرم -يقيناً- إخراجه عن هذا المسمى إلا بأن يقـول بلسـانه، أو يشـهد بأعماله أنه ليس من المسلمين.

الفصل الخامس

أمور.. لا تخرج المؤمن من الإيمان

قد عرفنا في فصول الكتاب السابقة أن هناك معاص لا تخرج المسلم من الإيمان، ما لم يستحلها، ونعني بالاستحلال تبرير المعصية وعدم الخوف من العقوبة، والسرقة، وشرب الخمر، وغير ذلك معاص قد يقارفها المسلم المؤمن في لحظة من لحظات ضعفه وغفلته، ولا تخرجه عن الإيمان، ودليل هذا معلوم من الكتاب والسنة، ومن أشهر ذلك حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم عليه ثوب أبيض، ثم أتيته وقد استيقظ، فجلست إليه، فقال: [ما من عبد قال لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة]. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: [وإن زنى وإن سرق] ثلاثاً، ثم قال في الرابعة : [على رغم أنف أبي ذر] (البخاري ومسلم والترمذي). فهذا الحديث حجة واضحة في هذا الصدد وليس له مخالف عند أهل السنة والجماعة، ولكن بعضهم تهاون في هذا الأمر حتى ظن أن ممارسة المعاصي دائماً دون خوف من عقاب وخشية من عذاب غير مناقضة للإيمان، وقد فصلت هذا الأمر سابقاً بحمد الله وتوفيقه، واشتط في هذا الأمر الخوارج والمعتزلة فظنوا أن المعصية هادمة لكل عمل صحيح سلف من المؤمن فإن مات ولم يتب دخل النار أبداً وهذا غلو بعيد.

وحديث أبو ذر هذا لا يناقض حديث أبي هريرة الذي يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: [لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن] (ابن ماجه) فإن هذا الحديث نص في انتفاء الإيمان هو غياب حقيقته من القلب، ومن فهم قضية الإيمان -كما أسلفت القول فيها- عرف معنى غياب الحقيقة وقت الفعل، فالإيمان خرف من الله الواحد، المطلع على كل شيء، القادر على عذاب من يعصيه، هذه الحقيقة من حقائق الإيمان، أترى أن إنساناً يرتكب جريمة الزنا -مثلاً- وهو يعلم أن ربه مطلع عليه، مراقب له وأنه سيحاسبه على ذلك وأنه ملاقيه يوم القيامة، ويبقى مستمراً في فعلته القبيحة!.. لو آمن هذا الرجل وقت هذه الجريمة لجمد الدم في عروقه، ولقام من فوره خائفاً فزعاً. ولكن استمراره دليل غياب حقيقة الإيمان من قلبه، فإذا انتهى وتذكر وأبصر وندم وخاف، وهذا هو الإيمان وإن لم يتذكر ولم يندم ولم يخف فلا إيمانه البتة لا قبل الجريمة ولا أثناءها، ولا بعدها.. ومن شهد بالإيمان لمثل هذا الذي لا يندم على فعلته ولا يخاف الله بسبب جرائمه فقد جهل وشهد بالباطل.

ولكن ثمة أمور تحتاج إلى تفصيل وإيضاح، فإن بعض الناس يحكم فيها حكماً خاطئاً بسبب التصور الناقص، وهي:

1- النطق بكلمة الكفر اضطراراً لا يخرج المسلم من دينه، ولا ينقل المؤمن عن إيمانه، والأصل في هذا قول الله تبارك وتعالى: {من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله، ولهم عذاب عظيم. ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، وأن الله لا يهدي القوم الكافرين} (النحل:106-107).

وقد نزلت الآيات بشأن عمار بن ياسر لما اضطر إلى أن يقول للكفار ما يريدون، بعد أن عذبت أمه سمية رضي الله عنها وأرضاها بأن ربطت بين جملين ثم جاء عدو الله أبو جهل فاتهمها بأنها لم تسلم إلا من أجل الرجال!!.. ثم ضربها في عنقها بحربة

فأرداها قتيلـة. ثم مـات زوجها تحت التعـذيب بعد ذلـك، وقد رخص رسـول الله لعمـار الذي أتى الرسـول باكيـاً من قوله بلسـانه كلمة الكفـر، فمسح رسـول الله صـلى الله عليه وسلم على أحزانه وقال: [إن عادوا فعد] (رواه ابن جرير والبيهقي)، أي إن عادوا إلى التعذيب فعد إلى القول. ثم نزلت الآيات لتدوين هذه الرخصة إلى يوم القيامة.

ولا يختلف اثنـان من طلبة العلم أن الصـبر على الأذى مع عـدم النطق بالكلمة الخبيثة خـير من النطق والنجـاة من العـذاب أو المـوت. فقد ظن البعض أن هنـاك حـالات قد يكون فيها إظهار الكفر خـير من إعلان الإسـلام لما يسـمونه (مصـلحة الـدعوة) وليس هناك مصلحة للدعوة أكـبر من أن يصـبر حاملوها على الأذى ويموتـوا في سـبيل اللـه، ولم تتدنس ألسـنتهم بكلمة الكفـر، وقد يكـون استشـهاد رجل أو رجـال لعـدم نطقهم بكلمة الكفر أبلغ أثراً في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى من بقاء طوابـير طويلة تنطق بكلمة الكفر!. وتعطي الطغاة ما يريدون.. فيجب أن يظل الاعتقاد السليم الصحيح أنها رخصة ولن تتعدى ذلك فتكون فضيلة وفضلاً وسابقة..

ولكن يجب أن يفرق بين ذلك -أعني النطق بكلمة الكفر اضطراراً- وبين إخفـاء حقيقة المعتقد، فإخفاء الإيمان في ظـرف من الظـروف قد يكـون فضـيلة، وسياسة شـرعية واجبة، وقد مارس هذا فضلاء الصحابة رضوان الله عليهم بمكة. ففي الحديث الصحيح عن حذيفة أن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قـال: [احصـوا لي كل من تلفظ بالإسلام] قال: قلنا: يا رسول الله أتخاف علينا، ونحن ما بين الستمائة إلى السبعمائة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إنكم لا تدرون لعلكم أن تبتلوا]. قـال: فابتلينا حتى جعل الرجل منا ما يصلي إلا سراً (مسلم وابن ماجه وأحمـد)، وكـان هـذا بـالطبع في مكة.

فإخفـاء المسـلمين للشـعائر في هـذه الحقبة ليس جبنـاً، ولا رخصة غيرها أفضل منها وإنما هو سياسة واجبة لانتشار الإسلام، وإعلاء مناره. وقد يصل بالمسلمين ظرف من الظروف يكون إخفاؤهم لعقيدتهم وإيمانهم خيراً من إعلان ذلك، وفرق كبير بين إخفاء حقيقة الإيمان، والنطق بكلمة الكفر. ولكن ينبغي أن يعلم أن هـذا الظـرف والمناسـبة يحددها النظر الشرعي السليم المبني على اجتهاد صائب صحيح وليس الجبن والخوف من إظهار عقيدة الإسلام وشرائعه.

وليس إخفاء الإيمان فضيلة وفريضة للهروب من مكـروه فقط بل ولجلب منفعة عامة للمسلمين. وقد فعل هذا محمد بن مسلمة رضي الله عنه بأمر من الرسول صلى الله عليه وسلم، عندما أرسله لقتل كعب بن الأشرف (كان كعب بن الأشرف يهودياً، وكان شديد الأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكـان يتغـزل في نسـاء الصـحابة ويقع في أعراضهم في أشعاره فلما كانت وقعة بدر ذهب إلى مكة وجعل يؤلب المشـركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ناقضاً عهـده، فلما عـاد إلى المدينة انتـدب له الرسول صلى الله عليه وسلم سـرية على رأسـها محمد بن مسـلمة لقتلـه. وأذن لهم أن يقولوا ما شاءوا من كلام يخدعونه به، فزعموا له أنهم ضـاقوا ذرعـاً بصـحبة النـبي وشـكوا إليه ما أصـابهم من ضـنك وشـدة في العيش. وطلبـوا منه أن يـبيعهم طعامـاً ويرهنونه أسلحتهم، حتى إذا اطمأن إليهم وخرج معهم بعيداً عن حصنه قتلوه).

وكـذلك فعل نعيم بن مسـعود في غـزوة الخنـدق (نعيم بن مسـعود رجل من غطفـان أسلم أثناء حصار المشركين للمدينة في غزوة الخندق، فطلب من الرسول صـلى الله عليه وسلم أن يخذل الكفار ما استطاع قائلاً له: [إن الحرب خدعـة] فـذهب إلى بـني

قريظة وكانوا قد تآمروا مع المشركين، ونقضوا عهدهم مع رسول الله صـلى الله عليه وسـلم، فقـال لهم: إن قريشـاً إن أصـابوا فرصة من المسـلمين حـاربوا، وإلا فسـوف يعودون إلى ديارهم ويتركونكم تواجهـون المسـلمين وحـدكم، ونصـحهم ألا يقـاتلوا مع قـريش حـتى يعطـوهم رهـائن من رجـالهم، ثم ذهب إلى قـريش وقـال لهم: إن بـني قريظة نـدموا على نقضـهم لعهد محمد وأنهم صـالحوه على أن يأخـذوا منكم رهـائن يدفعونها إليه ثم يوالونه عليكم فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم، فلما طال بالمشركين المقام، طلبوا من اليهود أن يناجزوا المسلمين معـاً، فطلب اليهـود منهم رهـائن، وأبى المشركون، فتخاذل الفريقان وأرسل الله عز وجل على المشركين ريحـاً وجنـوداً من الملائكة، فاقتلعت خيامهم وألقت الرعب في قلوبهم فعادوا خائبين).

2- هذا وينبغي التفريق بين الاضطرار إلى قول الكفر، والاضطرار إلى فعل فيه اعتداء على الآخرين، فليس هنـاك اضـطرار لمسـلم أن يقتل مسـلماً، فليس نفس المضـطر بأولى من نفس المقتول. ولذلك نص العلماء على أن من اضطره كفـره أو ظـالم إلى قتل مسلم وإلا قتله أنه لا يجوز له أن يفعل، لأن نفسه ليست أفضل من النفس الـتي سيعتدي عليها لينقذ نفسه.

وقد نص الإمــام ابن القيم رحمه الله في الفوائد إلى أن من اضــطر إلى أن تفعل به جريمة اللـواط وإلا قتل أنه لا يفعل ولا يمكن من نفسه أحـداً، وهـذا الأمر ينصـرف ولا شك على من اضطر أن يفعل بغيره.

وأما من اضطر في عـرض أخيه المسـلم أو يسـبه أو يحكم عليه بـالكفر فمسـألة فيها نظر والصحيح والله تعالى أعلم أنه يجوز له ذلـك. إذ قد سـمح رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم أن ينــال من عرضه محمد بن مســلمة وهو في ســبيل جلب منفعة ما للمسـلمين، وقد سـمح الله سـبحانه وتعـالى للمسـلم أن يقـول في حقه ما يقـول اضـطراراً فكيف لا يجـوز أن يقـدح في عـرض المـؤمن اضـطراراً وهو دون ذلك ولا شك؟..

ولكن مما ينبغي ولكن مما ينبغي التنبيه عليه أن من لـوازم ذلك أن يعتـذر المسـلم لأخيه المسلم مما قد حدث منه اضطراراً.

وخلاصة هذا الأمر أن النطق بكلمة الكفر في الفتنة رخصة غيرها أولى منهـا، وأما قتل مسـلم أو الاعتـداء على عرضه باسم الاضـطرار فغـير جـائز، وأما سـبه أو تكفـيره فالصحيح والعلم عند الله تعالى، أنه جائز شريطة الرجوع عن هذا بأول فرصة سانحة.

وهنا يجب أن ننبه إلى قوله تعالى: {ولكن من شـرح بـالكفر صـدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم} (النحل:106).

إلا أن المسلم في حالة الضرورة وغيرها يضيق صدراً بـالكفر وأهلـه، ويعلم أن القـول الذي اضطر إليه إنما هو حال عارض، ورخصة عابرة، فإذا زال البلاء زالت. ومعنى هذا أن استسـاغة الفتنة والركـون إليها وجعلها نهاية المطـاف، وخاتمة السـعي كفر بالله تبارك وتعالى وإبطال لجهاد المؤمن وسعيه. ولذلك قـال الله تبـارك وتعـالى في شـأن هؤلاء: {ومن الناس من يقـول آمنا بالله فـإذا أوذي في الله جعل فتنة النـاس كعـذاب الله ولئن جـاء نصر من ربك ليقـولن إنا كنا معكم أو ليس الله بـأعلم بما في صـدور العالمين} (العنكبوت:10).

فوصف الله تبارك وتعالى هذا الصـنف الـذي يعجز في الفتنة فيلقى عصـاه ويستسـلم للباطل ويعتبر الفتنة مانعة له من الإسلام والإيمان، كما يعتبر المـؤمن عـذاب الله في الآخرة مانعاً له من الكفر والطغيان، وصفه تبـارك وتعـالى بالنفـاق إذ أن هـذا الصـنف نفسه يهرول إلى المؤمنين العاملين المخلصين عند النصر قـائلاً: {إنا كنا معكم} والله سـبحانه وتعـالى هو العليم بمن كـان مع المؤمـنين حقـاً، ولـذلك ختم الآية بقولـه: {أو ليس الله بـــأعلم بما في صـــدور العـــالمين؟ وليعلمن الله الـــذين آمنـــوا وليعلمن المنافقين} (العنكبوت:10-11).

فليكن المؤمن دائماً مع الله، ومع أوليائه في العسر واليسر والمنشط والمكـره، فـإن أماله البلاء يوماً ومال معه، فليعاود قيامه بأمر الله ودعوته إذا وجد الفسـحة والراحـة، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الفصل السادس

تأويل كلام الله

وصرفه عن ظاهره خطأ واجتهاداً

من الأمـور الـتي يـرمي بسـببها بعض المسـلمين إخـوانهم بـالكفر هو تأويل كلام الله وصرفه عن ظاهره خطأ واجتهاداً. والحق أن هذا من الأمـور الدقيقة والخطـيرة، وذلك أن هذه المسألة تتعلق بالقلب أكثر مما تعلق بالظـاهر. وذلك أن التأويل قد يصـدر من الخاطئ المتعمد للإفساد والغواية وتلبيس الحق بالباطـل، وهـذا كفر والعيـاذ بالله وقد يصدر من مجتهد لم يظهر له وجه الحق فأول كلام الله وصرفه عن ظـاهره. ولا يحـدد الفرق بين هذا وهذا إلا علام الغيوب المطلع على السرائر سبحانه وتعالى.

ولذلك فالمسارعة إلى تكفير شخص ما صدرت منه فتوى أو رأي جاء على خلاف كلام الله تبـارك وتعـالى تعجل غـير محمـود، وإنما الـواجب في مثل هـذه الأمـور التعـرف الكامل على مـراد المتكلم من كلامـه. والغاية الـتي يقصـدها في النهاية وإقامة الحجة عليه إن كان بالإمكان ذلك، وهذا الكلام المجمل لا يحتاج إلى تفصيل.

(ا) لكل متكلم مقصد يريـده، وفي سـبيل ذلك يتخذ الأسـلوب الـذي يقـدر عليـه، وقد يخونه الأسلوب وتختلط عليه الكلمات فتحتمل معنى لا يريده أبداً، ولا يقصد إليه، فمن الخطأ كل الخطأ تفسير كلام إنسان ما حسب ما يقتضيه أسـلوبه، لا حسب ما يريد هو أن يعبر عنه، ولذلك لا يجوز أن نفسر كلام شخص ما إلا بعد معرفة المعنى الـذي يريد التعبير عنه، وليحمل بعد ذلك الأسـلوب على المعـنى المـراد. ولا يقتصر هـذا في كلام البشر. بل يجب تطبيق هذه القاعدة نفسها في كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم.

(ب) إذا فهم المعنى الذي يريد المتكلم الوصول إليـه، فليكن النظر بعد ذلك في الغاية والهدف الذي سيق المعنى من أجله فقد يكون المعنى في ذاته صواباً، والهـدف الـذي يريد المتكلم الوصول إليه بـاطلاً ولا تنس الكلمة العظيمة (كلمة حق أريد بها باطـل).

فكم من كلام حق في نفسه ولكن قائله ما أراد به إلا الشر والفتنة. وليس هـذا مجـال التمثيل والتوضيح.

(ج) إذا تحدد المعنى والهدف اتضحت السبيل. وليس على المسـلم بعد أن رأى عوجـاً وانحرافاً إلا أن يقيم الحجة إن أمكنه ذلك، فإن رد أحدهم الحق بعد علمه وكابر وجحد عن علم وبصيرة فهو الزيغ والعياذ بالله.

وعلى كل فهذا المجال محفوف بالمخاطر لأنه في غالبه اتهـام للنيـات. واتهـام النيـات شـــيء خطـــير إن لم ينبن على أسس ثابتة قطعية صـــريحة، وأما مجـــرد الشـــبهات والظواهر وتتبع الأخطـاء فكل ذلك لا يجـوز أن يحمل مسـلماً على تكفـير مسـلم، ولم يبق إلا إقامة الحجة والأعذار إلى الله وبيان الخطأ دون اللجوء إلى التكفـير والتشـهير، والحكم أولاً وأخيراً لله رب العالمين العليم بالنيات المطلع على السرائر.

ولقد كان هذا الباب، أعني بـاب تأويل كلام الله وصـرفه عن ظـاهره، وما يـزال أعظم أبواب الشر التي فتحت على المسلمين، فيجب الحذر منه كل الحذر.

وقد كان من الأسباب التي ساعدت على التأويل ما يأتي:

1- اللغة العربية بحسب وضـعها فيها كثـير من الصـور البلاغية والبيانية الـتي تلجأ إلى التمثيل والتشبيه والاستعارة والكناية، وفيها من وجوه المجاز ما فيها. ولقد ساعد هــذا على اختلاف الآراء وتباين الأفكار، ليس في الأمور العملية الشـرعية وحـدها بل وأيضـاً في الأمور العقائدية الإيمانيـة. وليست هـذه ثغـرة في اللغة العربية أو نقص، وإنما كل اللغات كذلك، وإن كـان اللغة العربية أثراهـا، وأكثرها تصـرفاً في القـول وتحسـيناً في البيان وهذا في حقيقته ميزة وليس بثغرة إذا عرف الأصل الذي تحـدثت عنه آنفـاً وهو وجوب تفسير كلام المتكلم حسب المعنى الذي يريـده لا حسب المعـنى الـذي يحتمله اللفظ.

2- استغل المبطلون من أعداء الإسلام وأهل الأهواء هـذا فلجـأوا إلى تحريف الإسـلام من داخله بدعوى أن هذا مضمون اللفظ والمعنى المقصود، ولجأوا إلى تحريف الآيـات والأحاديث التي تعارض المعنى الخبيث الذي يريدون الوصول إليه.

ثم جـاء من يحمل كلام الله على معـان لا يريـدها الله ورسـوله جملة وتفصـيلاً وبـذلك نشأت التأويلات البعيدة وكلها تحت ستار الإسلام.

ولـــذلك فيجب التصـــدي لكل ذلك والرجـــوع في فهم الإســـلام إلى ســـلطته الأولى، والقواعد العربية، والالتزام بظاهر اللفظ دائماً، إلا إذا جاء دليل حتمي نعلم به يقيناً أن مقصود المتكلم من كلامه ليس هو ظاهر لفظه وإنما هو معنى آخر.

وعلى كل حـــال فـــإن أمر المبطل المـــؤول للإفســـاد والغواية لا يشـــتبه بـــأمر المحق المجتهد المتأول، وذلك على الناقد الخبير، ولذلك فلا يجوز لنا والحالة هذه التعجل في إطلاق لفظ الكفر على من ظهر التأويل في كلامه إذا عرفنا مقصـــــــــده وغايته وأنها ليست تحريفاً للإسـلام ولا إيثـاراً للباطل على الحـق، ولـذلك لم يكفر علمـاء السـلف المعتزلة، والمؤولين من الأشعرية لأن غايتهم كانت دفاعاً عن حوزة الإسـلام، وتصـدياً للزنادقة والفلاسفة وإن كان هؤلاء العلمـاء من السـلف قد حكمـوا ونشـروا بـأن كتب

الكلام التي ألفوها في العقيـدة (الإسـلام) باطلة يجب حرقها ولا يجـوز ميراثهـا. وكلام الإمام الشـافعي رضي الله عنه واضح وصـريح في هـذا، وكـذلك كلام الإمـام أحمد بن حنبل رضي الله عنه.

وهذا الموقف الصلب السليم الذي وقفه علماء السنة في كل عصر هو الموقف اللازم في عصـــرنا الحاضـــر، حيث كـــثر المبطلـــون المؤولـــون الزاعمـــون نصر الإســـلام والمسلمين.

فالرد إلى كتاب الله ورسوله أولاً والتزام بظاهر اللفظ ومعناه العربي وتحـريم التأويل ما لم يأت دليل قطعي يبين أن مراد الله ومراد رسوله ليس الظاهر المتبـادر وإنما هو المعنى الآخر المؤول. وهذه أمور يجب التمسك بها، وفهمها فهماً جيــداً وتعلم تطبيقها على شـتى أنـواع التـأويلات ليكـون المـؤمن على بصـيرة من أمـره، ثم بعد ذلك تـرك الرمي بالكفر وغيره إلا بعد البيان القطعي الذي لا يقبل المكابرة والجدل.

****

****

****